الكتاب الرابع
ممالك السودان المتطرفة
(١٨٨١ — ١٨٩٨)
السودان بين الاخلاء والاستعادة

تمهيد — كانت ممالك السودان المتطرفة : « الاستوائية » أو مديرية خط الاستواء فى الجنوب ، ومديرية هرر فى شرق الحبشة ، وزيلع وبربرة على خليج عدن وجميع ساحل البحر الأحمر وأهم مينه سواكن ومصوع . أقول كل هذه البلاد النائية التى تحكمها مصر كانت مستعصية على نفوذ المهدى شأنها فى ذلك شأن حواضر السودان والأماكن التى تطور فيها السكان فى ظل الادارة المصرية .

كان الخديوى عقب رحيل غردون فى آخر سنة ١٨٧٩ ، قرر تقسيم الأراضى السودانية الى ثلاثة أقسام وتعيين ثلاثة حكام عموميين للسودان وهرر والساحل . فوقع الاختيار للسودان على اسماعيل باشا أيوب ولكنه اشترط ، نظرا لحالة السودان بعد غردون ، أن يمنح سلطة مطلقة ويأخذ ٥٠٠,٠٠٠ جنيه و ٢٤,٠٠٠ رجل عدا الـ ١٥,٠٠٠ الذين كانوا هناك . ولما لم يكن من المستطاع اجابة هذه المطالب بسبب اضطراب الحالة المالية والسياسية عين رؤوف باشا فى السودان وعين زكى باشا فى هرر (يناير ١٨٨٠) وعلى رضا باشا فى الساحل (أبريل ١٨٨٠) .

كتب ماليت بهذه المناسبة ، بتاريخ٢٢ يناير سنة ١٨٨٠ ، الى حكومته

يقول : « لقد رجوت الخديوى ، قبل تعيين أى شخص كان فى منصب الحاكم العام للسودان تعيينا نهائيا أن يعطيه تعليمات بالغة منتهى الشدة والصرامة فيما يتعلق بتجارة الرقيق [1] » .

والغريب أن غردون حين ألغى فى فبراير سنة ٨٤ الاجراءات الخاصة بتجارة الرقيق استعمل نفس ألفاظ ماليت فقال « الشديدة الصارمة » وصفا لهذه الاجراءات التى كانت سببا فى تغير السودان وتحوله عن مصر .

وقد حاربت مصر فى كل عصر هذه التجارة المنكرة التى كانت متأصلة فى طباع السكان وعاداتهم ولكن كان يجب ، كما قلنا ، محاربتها باستعمال الحكمة والكياسة وتجنب أساليب العنف والطفرة . قال أبيت باشا : « بعد وصولنا بأيام ، سنه ١٨٥٧ ، صدرت أوامر رسمية مشددة بتحريم هذه التجارة ، فى الخرطوم بوجه خاص ، فهدمت سوق العبيد وسورهم وحرر أولئك المساكين الذين كانوا فريسة الجلابة .

« وقد بقيت هذه الأوامر ردحا طويلا من الزمن لاتتبع حرفيا . وبعد سنة ١٨٦٢ فشلت مجهودات بيكر وغردون وأمين وجيسى كلها رغما من تأييد الحكومة المركزية وحسن استعداد الخديوى ونبله . وقد أساءت بعض القبائل تأويل هذه الأوامر والنواهى وساعد قال الجلابة وقيلهم فى هذه الأوساط التى كانت المهدية قد تطرقت اليها واستكنت فى مطاويها على انتشار نار الثورة التى أصبحت من الآن فصاعدا غازية جيارة ، دافعة متدفعة [2] » .

وبالرغم من السياسة التى جرت عليها الحكومة الانجليزية منذ احتلال البلاد فى سنة ١٨٨٢ وتشجيع الثورة بطريق غير مباشر حتى انتظمت معظم الأصقاع وانتشر الخراب من الجنوب الى الشمال ومن الغرب الى

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية رقم ٧٨ مجلد ٣١٤

(٢) Dr. Abbate Pacha, Aegyptica Le Caire, 1892

الشرق فان ممالك السودان المتطرفة التى بقى العنصر المصرى مهيمنا على ادارتها بقيت على ولائها لم تحولها عنه تلك الاجراءات « الصارمة الشديدة » ولم تستطع المهدية من ناحية أخرى اجتذابها أو التوغل فيها ، ولكن انجلترا لم تشأ أن تترك هذه البلاد الهادئة الموالية المستعصية على الثورة وشأنها وحتمت أن يشملها قرار الاخلاء قوة واقتدارا لتتحقق أغراضها فى السودان وملحقاته جميعا .

الفصل الحادى عشر

ساحل الصومال وهرر

فى سنة ١٨٨٠ كانت فرانسا وانجلترا مهيمنتين على مصر ماليا وسياسيا وكان المراقب المالى الانجليزى أوكلاند كولفن يفكر فى ذلك العهد على ارغام مصر على التخلى عن قسم من مديرياتها المتطرفة المتاخمة للحبشة بحجة النفقات الباهظة التى تتكلفها .

وقد كتب ، فى ٨ ديسمبر سنة ١٨٨٠ ، ماليت الى حكومته ، بهذه المناسبة يقول : « قد أفهم تماما أن يقلق مستر كولفن بسبب النفقات التى تبهظ موارد مصر ، ولكن من المشكوك فيه جدا أن يكون سحب السلطات المصرية من هرر ومن بعض الأراضى الكائنة فى جنوب مصوع والسودان علاجا للموقف . والثابت الذى لا ريب فيه أن الأحباش سيتقدمون فى أعقاب انسحاب المصريين ويتبعونهم ويصير للبلادين من جديد حدود مشتركة . أما بخصوص امكان تخلى مصر عن زيلع وتاجورة وبربرة وبلهار فانى أعتقد أن عملا كهذا يتنافى مع مصالح حكومة صاحب الجلالة لأن هذه المين اذا قدر لها أن تقع فى يد الأحباش أو قبائل محلية فمن أين يتأتى لها حكومة مناسبة . واذا قدر لها ، من ناحية أخرى أن يمتلكها الطليان أو الفرنسيون ، وهذا أقرب الى الاحتمال ، فقدت نقطة عدن هيمنتها [1] » .

---

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية رقم ٧٨ مجلد ٣١٩٣

والواقع أنه منذ تدهور أحوال مصر الاقتصادية والسياسية اتجهت أطماع الحبشة وفرانسا وايطاليا وانجلترا الى الممتلكات المصرية ، وقد جاء فى مذكرة لوزارة الخارجية الانجليزية ، تاريخها أغسطس سنة ١٨٧٩ ، أن القائم بأعمال السفارة الألمانية فى لندرة البارون فون دن برنكن كان أرسل الى اللورد سالسبرى كتابا جاء فيه :

« ان أراضى الساحل التى كانت من قبل تحت السيادة التركية قد حصلت عليها الآن الحكومة المصرية مقابل تضحيات جسيمة ، وهى فى الوقت الحالى جزء لايتجزأ من الأراضى المصرية ، باعتراف الباب العالى ، وتشرف عليها ادارة بالمعنى الصحيح [١] » .

على أن انجلترا ، وان كانت تطمع فى هذه المناطق ، آثرت فى ذلك الوقت الاكتفاء باقصاء الدول المنافسة باستمساكها باحترام القانون العام والمعاهدات .

لذلك كتب وزير الخارجية الانجليزية الى ماليت ، بتاريخ ٢٠ ديسمبر سنة ١٨٨٠ ، بالاشارة الى اقتراح كولفن السابق الذكر الخاص باخلاء المناطق المصرية : « ان خطة كهذه تناقض على طول الخط نصوص اتفاقية ساحل السومال التى توليها حكومة صاحب الجلالة أكبر قسط من عنايتها واهتمامها لأن مصالح هذا البلد مرتبطة ، الى حد كبير ، بالمحافظة على حقوق مصر فى جميع المناطق المعترف بها حاليا فى هذه الاتفاقية وفى فرمان سنة ١٨٦٦ وفرمان سنة ١٨٧٣ . ومهما كان من الأمر فان حكومة صاحب الجلالة مقتنعة أن التخلى عن هذه المناطق قد يوقع مصر فى ارتباكات أفدح بكثير من النفقات التى يشكو منها مستر كولفن [٢] » .

وكانت انجلترا بالطبع لا تغفل لحظة عن مراقبة السودان وأصقاعه

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية رقم ٧٨ مجلد ٣٣٦٥
(٢) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية ، رقم ٧٨ مجلد ٣١٩٢

المتطرفة فعينت ، فى أول مارس سنة ١٨٨١ ، عاملها هنتر قنصلا لساحل الصومال من تاجورة الى راس حافون . وفى شهر نوفمبر من السنة نفسها ، زار القبطان سيلى المقيم المساعد فى عدن ، زيلع والساحل وبعث بتقارير مختلفة الى حكومته .

ومن جهة أخرى فان ملكولم العامل القديم المكلف بالغاء تجارة الرقيق فى البحر الأحمر والذى اضطر الى الاستقالة بسبب اعتراض غردون والحكومة على اجراءاته الشديدة المرهقة ، كان معتكفا فى مدينة بادن بالنمسا وكان يرسل من هناك تقارير شتى الى اللورد نورثبروك .

وفى أحد هذه التقارير المؤرخ ٨ نوفمبر سنة ١٨٨١ ، أظهر ملكولم خوفه من أطماع فرنسا التى كانت تفكر ، بعد تونس ، فى بناء امبراطورية لها فى أفريقيا . وكان يرى أن أفضل وسيلة للحيلولة بين هذه الدولة وبين سبق انجلترا الى تحقيق مآربها هى أن تحرص الحكومة الانجليزية كل الحرص على أن لا تدع لها سبيلا تتذرع بها للتدخل فى أملاك مصر وذلك بأن تخفف من وطأة الاجراءات المتخذة ضد تجارة الرقيق فتتقى بذلك كل سبب للتذمر والثورة .

وقد قال ذلك فى غير مواربة بعد أن أشار الى خطر التدخل الأجنبى أو بعبارة أدق الى «عدم الخطر» بالنسبة لزنجبار من ناحية اجراءات الرقيق ، نظرا لأن ذلك البلد كان موضوعا تحت حماية بريطانيا العظمى : «أما مصر فان حالتها تختلف تماما (عن حالة زنجبار) لأن السودان فى الوقت الراهن غير موال لمصر اطلاقا ويكفى أقل سبب لقيامه فى ثورة عامة . والحبشة معادية .

«وانى وان كنت أرغب ، لو قدرت ، فى سحق تجارة الرقيق كل مسحق ، الا أننى أرى أنه يجب علينا أن لا ننسى أن هذه مسألة معضلة وأنه يجب أن نتحامى تعريض مصر الى أية صعوبة من الصعوبات التى

ذكرناها وذلك بارغامها فى الوقت الحالى ، مع علمنا بحالة الرأى العام فى مديرياتها ، على اتخاذ اجراءات شديدة أكثر من اللازم Too decided بل بالعكس يجب علينا أن نكتفى باجراءاتنا نحن ، الناجعة الرادعة ، فى البحر ، وأن نبذل أقصى جهدنا، بواسطة وكالات قنصلياتنا ووكالات الدول الصديقة لتحصين مركز مصر الأدبى والتجارى ، وأن نعمل المستحيل لاصلاح ذات البين بين مصر والحبشة [1] » .

ولكن هذه الصيحة الكاشفة جاءت متأخرة لأن انجلترا ستعرف كيف تستفيد من الثورة فى مصر لتحتلها وفى السودان لترغم مصر على اخلائه كما أنها ستعرف فى الوقت نفسه ببراعتها ودهائها كيف تتخلص من الدول المنافسة لها . فلم تكن انجلترا اذن بحاجة الى مصانعة مصر ومداراتها قبل الثورة ، ومن باب أولى بعدها ، فما كادت تستقر قدمها فى مصر حتى أخذت تملى ارادتها املاء (برقية غرانفيل فى ٦ يناير سنة ٨٤ واستقالة شريف) بخصوص السودان . ثم لما رأت أن الثورة التى تتذرع بها لم تنفذ الى ممالك السودان المتطرفة ، أى الى ملحقاته ، كما كانت تتوقع ، وذلك بسبب بقاء الادارة مصرية بهذه البلاد منفصلة عن سلطة حاكم السودان لجأت الى القوة لتنفيذ سياسة الاخلاء العام دون تمييز .

وقد خاطب ايجرتون ، فى ٢ يونية سنة ١٨٨٤ ، نوبار باشا فى موضوع اخلاء هرر وساحل السومال فاعترض نوبار . وكان بعض الممثلين الانجليز يؤيدون سياسة عدم الاخلاء لعجزهم عن ادراك كنه تلك السياسة التى لا قلب لها ، المرسومة فى وزارة الخارجية البريطانية، والكشف عن أغوارها وأغراضها البعيدة .

(١) هذه التقريرات المطبوعة مكتوب فى اعلاها « سرى » وهى موجودة فى المجلد ١٣ من القسم الخاص بمطالب مصر Claims To Sovereignty (سجلات وزارة الخارجية الانجليزية رقم ٧٨) .

كتب هنتر من عدن فى مذكرة ، مؤرخة ٥ يونية سنة ٨٤ ، معترضا على كل اخلاء لا روية فيه ، وامتدح ادارة المصريين فى بربرة «والأعمال العمومية الجليلة التى تجد فيها أية ادارة مصدر فخار لها» . وفى ٢٩ يونية قررت وزارة الخارجية الانجليزية « الاخلاء فى أول فرصة » . وفى ٢١ يولية كتب ايجرتون يقول ان نوبار ، بعد استشارة الخديوى ، أعطى الأوامر اللازمة لتسليم بربرة الى القنصل هنتر «أما فيما يتعلق باخلاء هرر فانه لا يميل بتاتا الى اتخاذ أى اجراء فعلى فى الوقت الحالى . ثم لما قلت له أن الحاميات تكلف مصر مالا بطريق مباشر أو غير مباشر أجاب أن الخديوى يؤثر الاحتفاظ بهرر لأنه يعلم تماما أنها لا تكلف مصر شيئا وأنها تكفى نفسها» .

وقد بلغ دخل هرر فى سنة ١٨٨٣ مقدار ٧٥٠٠٠ جنيه والنفقات ٦٠٠٠٠ بزيادة ١٥٠٠٠ جنيه .

وكان السكان فى بربرة ، رغما من دسائس هنتر وتوزيع الذهب بين العقال أو رؤساء القبائل المجاورة ، يرسلون الى الحكومة المصرية عرائض يحملوها على عدم التخلى عنهم . وقد جاء فى احداها : «منذ ١٥ عاما يتمتع سكان بربرة بالتبعية لحكومة خديوى مصر التى نحنو عليهم ونترفق بهم ، وهم لا يريدون بهذه الحكومة بديلا . وقد بعث الماجور هنتر ، سرا وبغير علمهم ، ترجمانا الى العقال الذين ذهبوا للمفاوضة والتعاقد معه بغير توكيل .

«اننا مسلمون ولا ندين بالطاعة الا لمسلمين مثلنا» . وفى ٩ أغسطس صرح نوبار أن دخول الجنود الانجليزية فى زيلع قد يجر الى مصاعب مع الباب العالى وأن مصر تدفع سنويا الى تركيا ، ١٥٠٠٠ جنيه جزية ، نظير امتلاك هذا الميناء . وفيما يتعلق ببربرة كان يرى أن نفقات الاخلاء والتعويض عن الأشغال العمومية والمبانى التى شيدتها مصر يجب أن تدفعها سلطات عدن .

وفى ١١ أغسطس أصدرت وزارة الخارجية الانجليزية الأمر الى الحكومة المصرية «بأن تساعد دون ريث ولا ابطاء على اخلاء هرر ومين ساحل السومال . وفى ١٢ صدع نوبار بالأمر وفى ٢٥ أغسطس قررت الحكومة الانجليزية أن تكون نفقات الاخلاء على عاتق الحكومة المصرية وأن ينظر فيما بعد فى مسألة التعويض عن المبانى العمومية وخلافها .

وقد وقعت أوامر الاخلاء على المصريين فى هرر وقع الصاعقة، وكان لابد من ترحيل ١٤٥٠٠ مصرى من مدنيين وعسكريين بأسرهم . وقد كتب حاكم هرر فى ١٩ شوال سنة ١٣٠١ (١١ أغسطس) يقول : « . . على أن جميع الضباط والموظفين والعساكر أصبحوا بلا مال لأنهم أنفقوا كل ذخرهم فى بناء المساكن بناء على أوامر الحكومة التى كانت تريد أن تجعل منهم قدوة للسكان الآخرين وتبعث المنافسة بينهم[1]» .

وجاء فى عريضة أرسلها الى رئيس الوزارة المصرية ٥٣ من الأعيان والتجار الوطنيين والأوربيين بمدينة هرر ، فى ١٠ أغسطس : «من خمسين سنة خلت كانت هذه المملكة ميدانا للبربرية يحكمها ملوك صغار ، وكان اهراق الدماء وأعمال السلب والنهب قائمة على قدم وساق .

«وقد هيمنت الحكومة المصرية على هذه البلاد ، قبل تسعة أعوام ، فوطدت النظام والأمن وجعلت من مدينة هرر مركزا من أهم مراكز التجارة . فاذا كان قرار الحكومة لامرد له لم يكن لنا بد من الهجرة مع الجنود وترك أملاكنا للنهب .. »

ولم تخف دقة الموقف واختلاطه على هنتر سيما وأن الحكومة الانجليزية كان قر رأيها على احتلال الساحل بمجرد اخلائه أما هرر فكان قرارها

---

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية . رقم ٧٨ مجلد ٣٧٢٧

لايعـدو الاخلاء ، الاخلاء الذى ينطوى على أفدح العـواقب لمصر وللمديرية .

واذا كان اخلاء الساحل قد يبرره فى منطق السياسة الانجليزية رغبة انجلترا فى احتلاله مع ما فى ذلك من اهدار حقوق مصر ، واذا كان اخلاء السودان وما صحبه من تخريب شامل وقتل الملايين من الأنفس وتغليب الهمجية على المدنية قد تبرره الى حد ما هذه الرغبة نفسها فان اخلاء هرر الآمنة المطمئنة الزاهية الزاهرة فى ظل المصريين لايجد ما يبرره الا شهوة التخريب المجرد وتمزيق مصر كل ممزق واذلالها .

كتب هنتر من عدن الى ايجرتون ، بتاريخ ٣ سبتمبر سنة ١٨٨٤ ، يقول : « انى أعترف أن فكرة الاخلاء ثقيلة على النفوس لأن تنفيذها يستدعى خسارة جسيمة فى السمعة والأموال ونتيجته التخلى عن كل ما تحصـل وتجمع بثمن غال من التضـحيات العظيمة والنفقـات الباهظة [1] » .

وفى ٤ سبتمبر اقترح هنتر اعادة استقلال المدينة تحت حكم ابن الأمير السابق والاعتراف بالسيادة الانجليزية بواسطة قبائل السومال والجالا فى الطرق بين الداخل والساحل .

وقد استولى الانجليز على زيلع فى ٢٤ أغسطس وأصبحت ادارة ساحل السومال جميعه تابعة للحكومة الهندية .

وكان هنتر يفكر من ذلك الوقت فى نشر المسيحية فى اقليم هرر فكتب ، فى ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٨٤ ، يقول : «لا يجب الاعتقاد أن الجالا الذين لا يدينون بالاسلام مسيحيون . انهم لا يزالون وثنيـين لأن الدعوة للصليب لم تنشر بينهم .

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية . رقم ٧٨ مجلد ٣٧٢٧

« ومن المهم أن يلاحظ أن أولئك الذين يسمون « مسلمى الباشوات » : أى الجالا الذين اعتنقوا الاسلام منذ وصول الباشوات المصريين ، ليسوا متعصبين أو متعبدين . ومهما كان من الأمر فانهم ليسوا مستغلقين أمام النفوذ المسيحى . وقد حاز القسيس كاهان Cahagne كل ثقتهم بطريقة ظاهرة ملموسة ، وهو من أصدقائى الذين يعول عليهم وولى حميم[1] . »

وتفسيرا لما تقدم يجب أن نذكر أن امتداد النفوذ المصرى كان مطردا من سنة الى أخرى . ولم تكن سيادة الخديوى معترفا بها ، فى بدء الاحتلال ، الا على ساحل السومال وفى حدود امارة هرر التى هى ، كما بينها رؤوف باشا ، جلديسة من ناحية الساحل ، ونهر الواش فى الشمال الغربى ، وقبيلة أوجادين فى الجنوب الشرقى ، ومنطقة الأروسى فى الجنوب[2] . ثم أخذت مصر تسيطر على البلاد الواقعة وراء هذه الحدود الضيقة ، حتى بلغ عدد القبائل الخاضعة لها ، فى سنة ١٨٨٣ ، رقما ضخما : مليونا ونصف مليون من النفوس[3] اعتنق قسم كبير منها ، من بين الجالا الوثنيين ، الاسلام .

وكان الأب كاهان قسيس الجالا قام فى سنة ١٨٨١ برحلة حول هرر وشاهد فى مختلف البقاع مزارع جميلة من شجر البن والموز « لم يمض على وجودها الا سنوات قلائل » .

وقد تكلم ذلك المبشر عن انتشار النفوذ المصرى بين الجالا فقال : « قبل الاحتلال المصرى كانت قبائل الجالا ، التى لاتعترف لأمير هرر

---

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية . رقم ٧٨ مجلد ٣٧٢٨

(٢) سجلات عابدين . تقرير من رؤوف باشا بتاريخ ٢ ربيع الثانى سنة ١٢٩٣ هـ (٢٧ ابريل سنة ١٨٧٦) .

(٣) سجلات عابدين . تقرير من محمد نادى باشا بتاريخ ٤ ابريل سنة ١٨٨٣

الا بسلطة اسمية ، تحكم نفسها بحسب تقاليد السلف ، تلك التقاليد التى اعتراها بعض التحوير والتبديل فى الأصقاع التى نفذ منها الاسلام ، وكان لكل بطن من قبيلة ، كالنونو عند الآلا ، وال معين بمقتضى نظام وسط بين الوراثة والانتخاب ، يدينون له بالطاعة ثمانية أعوام ، اسمه البوكو ..

« يأتى من بعده ، وللمدة عينها ، الدورى ، وهو محدود السلطة جدا ، ثم من بعده ، الرابا ، يقوم ببعض الشؤون القليلة الأهمية . وقد اجتهد المصريون فى محو كل هذه التقاليد القومية ليطبعوهم بطابعهم ويدمجوهم فى جنسهم ، فاختفى البوكو عند القبائل الخاضعة وانتزعت منه كل سلطة وأصبح فقيرا ذليلا . وعين مكانه موظف ، ينتسب فى معظم الأحايين الى هرر ، يقوم بجباية الضرائب ، وتوزيع العدالة فى صورة من الصور . وحل الجراد محل الدورى ، وهو غالبا من أصحاب الأملاك الكبيرة السابقين ... وشارة منصبه العمامة . ومن هنا كان يقال : لف الباشا العمامة حول رأسه (ساباتا مارى) ونزع منه اللفافة (ساباتا نيقة) بمعنى قلد الجراد الوظيفة أو عزله [1] . »

على أن المبشر كاهان لم ترقه الناحية الدينية من التوسع المصرى فقال فى ختام مقاله : « ولاشك أن احلال عادات أجنبية محل عادات قوميـــة (كذا) بطريق العنف هو الذى يحول دون تقـــدم السيطرة المصرية . »

ويلاحظ أن المصريين كانوا يحلون تعاليم الدين الاسلامى محل الوثنية وقد أشـــار المبشر فى بداية مقاله الى هذه التعاليم : « رحلنا فى يوم ٢٥ أكتوبر ، فى ساعة مبكرة ، فكنا نسمع صغار الأطفال فى هذه الساعة يتلون القرآن . وقد انتشر هذا التعليم فى ضواحى هرر وكان المصريون يعملون على تعميمه فى البلاد على الرغم من نفور الجالا منه» .

(١) T. Cahagne, Missions, Catholiques No. 678, 2 Juin 1882

والواقع أن الجالا ما كانوا يأنفون من هذه التعاليم وكان اقبالهم على الاسلام ، الذى كان يسن على تلك القبائل المتوحشة سننا من التأدب العالى ، يزداد كل يوم بدرجة أقلقت الانجليز ، وقد كتب هنتر المكلف بالاشراف على اخلاء هذه المناطق ، من عدن بتاريخ ١٥ أبريل سنة ١٨٨٤ ، ما نصه : «لو استمر النظام الحالى بضع سنوات أخرى لانضوت القبائل كلها تقريبا تحت راية الاسلام [١] » .

ولا يفوتنا أن نقول بهذه المناسبة ان مصر اذ كانت تنشر الحنيفة السمحاء بين أولئك الوثنيين ما كانت تفكر مطلقا فى منع المسيحية من نشر تعاليمها العالية بين الجالا والقبائل الأخرى . وبالعكس من ذلك كان تسامحها الدينى وتقاليدها الانسانية تدفعها الى حماية المبشرين ومساعدتهم على التوطد وتأدية مهمتهم على أحسن وجه فى الامبراطورية السودانية . وشاهد ذلك ما كتبه جبرائيل سيمون فى كتابه عن زيارته ، فى سنة ١٨٨١ ، لقرية كرن المصرية بمديرية بوغوص المجاورة للحبشة : « هناك كان يقيم المبشرون اللازاريون وكان المشرف عليهم وقتئذ كبير القساوسة توفييه : وقد ابتنوا مساكن رافهة ، وكانت لهم فى الضواحى أملاك يستغلونها . وكانت لهم كنيسة فخمة مبنية بالحجر شيدتها لهم الحكومة المصرية على نفقتها . وهم يعلمون الصبيان الكثيرين الفرنسية والحرف المختلفة على أن شغلهم الشاغل الحقيقى كان التنصير الذى هو مهمتهم الأساسية ، وكان عملهم فى هذه الناحية يمتد الى ماوراء الحدود المصرية [٢] » .

وقد اعترف القسيس كاهان نفسه فى مقاله بمجلة البعثات الكاثوليكية (يولية سنة ١٨٨١) ان الخديوى أوصى السلطات المصرية فى زيلع

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية رقم ٧٨ مجلد ٣٧٢٥ . مذكرة من هنتر الى بيرنج مؤرخة عدن فى ١٥ أبريل سنة ١٨٨٤

(٢) G. Simon, Voyage en Abyssinie

وهرر بتقديم كل مساعدة له ، وقد أنشئت أول نقطة لتتصير السومال فى بربرة فى مارس سنة ١٨٨١ ، وقد أحسن وفادته هناك الحاكم المصرى وأرسل ابنه الى « البعثة » ليتعلم الفرنسية وتبعه آخرون .. ومن هناك ذهب كاهان الى زيلع وهرر فى قلب بلاد الجالا فقدمت له السلطات المصرية المسلمة كل معونة وأمدته بجند مسلحين لحماية بعثات المبشرين من اعتداء الجالا والدناكل وغيرهم .

والذى كانت تعترض عليه مصر ولا تتغاضى عنه هو تنصير المسلمين بين القبائل الخاضعة لها — وهذا حق لها — خصوصا وان غرض الجمعيات التبشيرية الأوروبية المختلفة كان السعى ، تحت ستار الدين ، فى تحقيق فكرة سياسية وهى نشر نفوذ الدول التى تنتمى اليها تمهيدا لتدخلها ، ولطالما طغت الفكرة السياسية على الفكرة الدينية وأدت الى حروب وحشية وفظائع — كما حدث بين المبشرين الفرنسيين والمبشرين الانجليز فى أوغندة مما سنبينه فيما بعد .

ويمكن القول أن نفوذ مصر الدينى فى أفريقيا قد أوجد لها مناطق نفوذ بعيدة خارج حدود سيادتها الثابتة . كتب القائد بلير ، المقيم السياسى فى عدن ، فى ٢٤ ديسمبر (٨٤) ، ردا على خطاب طلب فيه بيرنج معلومات بخصوص الراية المصرية التى كانت لاتزال مرفوعة فى راس حافون على المحيط الهندى :

« ... أرى لزاما على أن أقول ان سلطة حكومة الخديوى لم تقرر قط ولم يعترف بها بالطبع ، فيما وراء بضعة أميال من شرقى بربرة .

« ولكن يجب أن نذكر فى الوقت نفسه أن السومال والدناكل والعرب فى خليج عدن ، سواء أكانوا مستقلين أو تحت الحماية الانكليزية أو الفرنسية أو الايطالية ، يرفعون على سفنهم ، وكثيرا ما تبدو على منازلهم أو قبورهم ، راية لايشك الناظر فى أنها تركية أو مصرية .

« وكثيرا ما أدى هذا العمل ، حتى وقتنا الحالى ، الى خلق عوامل سوء تفاهم كثيرة ، ونحن شارعون فى اتخاذ الاجراءات اللازمة لتصحيح الموقف فيما يتعلق بالقبائل الموضوعة تحت الحماية البريطانية [1] » .

وقد انتشرت مظاهر الفوضى فى هرر فى أثناء اخلائها الذى دام من نوفمبر سنة ١٨٨٤ لغاية يونية سنة ١٨٨٥ ومنذ اعادة سلطة أمرائها الأقدمين . كتب كنج من زيلع ، فى سبتمبر سنة ١٨٨٥ ، يقول : « ان الملك منليك ، باغراء الفرنسيين ، كان على وشك مهاجمة هرر ، وان حياة الأوربيين مهددة كل يوم وكل ساعة ، وان جميع الجالا وقبائل أخرى أصبحوا يتجنبون هرر مفضلين المرور من طريق جلديسة وذلك بسبب الأموال الفادحة التى يأخذها منهم الأمير[2] . »

وكتب كبير قساوسة هرر كاهان ، من ناحيته ، الى هنتر ، بتاريخ ٢٣ فبراير سنة ١٨٨٥ : « يظهر ان الآمال التى علقناها ، نحن الأوربيين ، على التدخل الانجليزى ، لن تتحقق ...

« ونظرا لسوابق أمراء هرر لا مناص من النص على وجوب تمتع المسيحيين بحرية السكن آمنين بين حيطان المدينة ، دون أى اقلاق لهم ..

« وانى أسمح لنفسى بأن أعرض عليكم شكوى النائب الدينى فى زيلع . بعد أن كنا نتمتع بامتيازات جمركية واسعة تحت الحكم المصرى أصبحنا الآن ، نحن والناس سواء ، وانى لا أشكو من ذلك ولكن يظهر أن تقدير ما نستورده قد زاد عن الحد [3] . »

وفى أبريل تأهب التجار الأوربيون للرحيل مع الفوج الأخير من الجنود المصرية .

---

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية . رقم ٧٨ . مجلد ٣٨٥٧
(٢) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية . رقم ٧٨ . مجلد ٣٨٦٠
(٣) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية . رقم ٧٨ . مجلد ٣٨٥٩

وفى يونيـــة (٨٥) تم الاخلاء وتركت هرر ليستبد بها أمراؤها وخلفاؤهم الأحباش الذين غزوها بعد سنتين (٨٧) .

وقد أرسل ، فى ٢٠ يناير سنة ١٨٨٧ ، منليك « ملك شوا وجميع الجالا » الى القائد الانجليزى فى عدن ، خطابا كاشفا ، هذا نصه :

« كيف حالكم ؟ اننى بحمد الله فى حالة جيدة . ان الأمير عبد الله كان لا يطيق مسيحيا فى مملكته .

« انه جران آخر . ولكننى ، بعون الله ، قد هزمته ورفعت رايتى فى عاصمته ..

« ان هرر ليست بلادا اسلامية كما يعلم الجميع . » !

وكان ملك الحبشة ، حوالى سنة ١٨٨٠ ، عمد من ١٠ الى ٢٠,٠٠٠ مسلم فى الممالك المصاقبة للبحر الأحمر بحجة أن أولئك المسلمين من سلالة مسيحيين كان أحد الفاتحين المسلمين عمدهم بالقوة [١] .

وفى مذكرة عن الحالة فى هرر ، من عدن فى ٤ يناير سنة ١٨٨٨ ، أى بعد سنة من احتلال الحبشة ، شكا المقيم من أن الراس مكونان ، حاكم مديرية هرر ، أغار فى العهد الأخير على قبيلة جيسى السومالية فى شرق هرر وحمل عددا كبيرا من النساء والأطفال والحيوانات .

وقد زار يوليوس بوريللى مؤلف كتاب (الحبشة الجنوبية) هرر فى مايو سنة ١٨٨٧ ، ورأيه حجة ، قال :

« ان احتلال الحبشة سيكون ، فى الزمن الأول على الأقل ، ضربة قاصمة لهرر . وكان الملك أقام معسكره بالقرب من المدينة . وبعد رحيله هجرت الخيام وطرد الغزاة قسما من الأهالى . ولم يتمكن بعض

---

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية . رقم ٧٨ . مجلد ٣١٤١ . القاهرة فى ٢٠ فبراير سنة ١٨٨٠ .

السكان الهائمين على وجوههم من حمل بعض الأمتعة التى لا غناء عنها . وقد استولى الغزاة على كل المؤن المخزونة ...

« وهرر خاضعة اليوم لنظام ادارى يطابق النظام الذى يزدهر فى شوا .

« وفى الأحوال الراهنة من المحتمل حدوث مجاعة . لأن تموين ، الأذرة وشيك النفاد ، والتبذير مستمر ، والتوزيع لا ضابط له . وفوق ذلك ينهب الأحباش كل ما لم ينتهبوه فى الأيام الأولى من الغزو .

« ويبيع الجنود كل ما لايستطيعون استهلاكه فى سبيل الحصول على المال .

« وقد اضطرب نظام التعامل وأخذ عدد التجار يتضاءل ..

« وعلى الرغم من أن الضرائب قد جبيت فى القرى المجاورة فان الأحباش كانوا يغزونها كل يوم . والماشية فى نقصان . والأثمان فى إرتفاع .

وقد حدث أن قبيلتين كانتا دفعتا الضرائب المطلوبة . وبعد أيام قصدهما الجند واستولوا قسرا على النساء والأطفال والقطعان » .

وقد زارت بعثة بونشان Bonchamps اقليم هرر سنة ١٨٩٧ وكتب أحد أعضائها شارل ميشيل كتابا عنوانه (صوب فاشودة من طريق أثيوبيا) جاء فيه : « وقد أمضت مصر مع النجاشى يوحنا — يونية سنة ١٨٨٤ — معاهدة ردت بمقتضاها اليه بلاد بوغوص ، ثم تنازلت له عن هرر (كذا) بعد أن وضعت على العرش ابن الأمير السابق عبد الله .

« عندئذ عادت الفوضى الى البلاد وعاد معها نظام الانقلابات وضياع الأمن الذى عانت منه المدينة كل بلاء قبل مجىء المصريين .. وكانت سنوات الاحتلال الأولى أبعد ماتكون من السعادة والرفه .. وقد

طرد جنود الأحباش وهم آلاف سكان المدينة من منازلهم وأقاموا فيها وخربوا كل ماوجدوه حولهم ونهبوا مخزون القمح وبضائع التجارة ، وتقرر التعامل بالعملة النحاسية القديمة فأغلقت أسواق المدينة وهرب التجار والتجارة الى الريف القصى .

« وكان نصيب الزراع البؤساء نصيب غيرهم من الظلم والاستبداد . وقد أخذت قطعان بحالها من أصحابها ووقع الفلاحون الجالا فى أشد حالات الضنك والمحنة .

« وكانت نتيجة هذه السياسة الغاشمة الخراب العام فى مديرية هرر ، وفى المدينـــة . يضـــاف الى ذلك أن الأمراض المعـــدية والديزنتاريا والجدرى الخ قد أتمت فعل البؤس واجتاحت الأهالى التعساء » .

ثم قال بعد ذلك : « وأكبر رجائنا أن يحدث تبديل فى الادارة لأنها بنظامها الحالى لاتساعد على ترقية التجارة واعلاء شأنها » .

وقد كانت مناطق الجالا فى هرر من أغنى البقاع بزراعتها وان ما حاق بهرر والجالا فى عهد منليك الأول حاق بمناطق الجالا الغنية وهضابها فى جنوب الحبشة فى عهد منليك الثانى الذى تمكن من اخضاع ممالكهم فى مدة خمسة أعوام ، وما قهرهم الا بفضل الأسلحة النارية التى كانت أوربا تبيعها للحبشة . قال ميشيل وقد زار بلاد الجالا التى فتحها الأحباش فى نفس السنة التى زار فيها هرر (١٨٩٧) :

« يظهر اليوم أن اخضاع الجالا أصبح تاما بعد حرب دامية لارحمة فيها . كانت مجزرة قتل فيها ثلاثة أرباع السكان الذكور ، وسبى فيها عدد كبير من النساء والأطفال وأحرقت مساكن وقرى بأكملها وأصبح مكانها بلقعا .. وقد أبلغنى أحد رؤساء الأحباش أنه اذا لم تجتح الغارة الأولى البلاد اجتياحا ثار السكان ولم يكن بد من ارسال حملة جديدة كبيرة . .

« وللجالا مزايا كبيرة فهم قوم جد وعمل ومهارة يحبون الاستيطان وعدم التنقل ، وفى مقدورهم أن يستغلوا أرضهم لو تركوا وشأنهم ولكن سيطرة الأحباش كانت نكبة عليهم[1] » .

* * *

أما بربرة فقد عين والش أحد المقيمين المساعدين فى عدن ، منذ

---

(١) Mission de Bonchamps Vers Fachoda à la Rencontre de la Mission Marchand à Travers l'Ethiopie, par Charles Michel, Second de la Mission

الواقع أن الصومال والدناكل والجالا المحيطين بالحبشة الذين ضمهم منليك الثانى الى الحبشة بالقوة ليسوا احباشا. واذ كان يوليوس بوريللى الفرنسى يرى «ان احتلال الحبشة لهرر ، فى الزمن الأول على الأقل ، سيكون ضربة قاصمة» فان هذه البلاد الاسلامية بوجه خاص منذ احتلالها الى اليوم تئن تحت نير الاستعباد وتحن الى عصر المصريين الذهبى. وقد نشرت جريدة (الأساس) بتاريخ ٢٩ أغسطس سنة ١٩٤٨ تحت عنوان : (وفد مسلمى الحبشة عند فضيلة الأستاذ الأكبر) مقالا جاء فيه: «استقبل فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مأمون الشناوى شيخ الأزهر فى مكتبه أمس وفدا من مسلمى الحبشة يتألف من حضرات السادة محمد عبد السلام ويونس يوسف ومحمد أحمد يوسف وعبد الرحمن عبد الله ، وهم من اهالى مقاطعة «هرر» وقد تحدثوا الى فضيلته فى بعض شؤون المسلمين بالحبشة وخاصة فى مقاطعة «هرر» وقدموا اليه مذكرة بحالتهم الدينية والثقافية فى تلك البلاد .

وقد تحدث أعضاء الوفد بعد خروجهم من لدن الشيخ الأكبر الى مندوب الأساس فذكروا له انهم كانوا فى المملكة العربية السعودية وتحدثوا الى سمو الأمير فيصل آل سعود عن أحوال المسلمين بالحبشة وانه أعطاهم كتاب توصية لسعادة أمين الجامعة العربية ثم أمر أن توضع تحت تصرفهم طائرة خاصة هى التى حملتهم الى القاهرة .

وقال حضراتهم لمندوبنا انهم يأملون خيرا فى رحلتهم هذه من جراء اتصالهم بزعماء العالم الاسلامى .

باسم مسلمى الحبشة

وقد تقدم الوفد بمذكرة الى الأستاذ الاكبر فوعدهم خيرا ومما ورد فيها باسم مسلمى الحبشة عامة ومقاطعة هرر خاصة يتقدم الوفد الى العالم العربى والاسلامى بشكواه من الوضع القائم لحكومة الحبشة وما يلاقيه مسلموها حيث يعامل الشعب الحبشى معاملة ذات وجهين . =

أكتوبر سنة ١٨٨٤ ، مشرفا على ادارة المدينـــة بلقب ووظيفة نائب قنصل .

وكانت مصر تطالب بأن تدفع على الأقل تكاليف المنارة التى شيدتها بمالها وكذلك ثمن المستودعات والمنشآت المختلفة التى وضع الانجليز يدهم عليها . وقد استشار اللورد كبرلى ، بهذا الخصوص ، حكومة الهند ،

= **بعض ظلاماتهم**

وتتلخص شكواهم من عدم المساواة وانه لايوجد فى مقاطعة هرر موظف واحد من المسلمين مع ان الهرريين فى غاية الرقى منذ ٣٠٠ سنة وبفضل ما تقفوه من المصريين ترقوا أكثر وان الحكومة الحبشية تنفق على التعليم ١٢ مليونا لايخص المسلمين منها اى شىء لأى مدرس ونسبة تلاميذ المسلمين نصف فى المائة ولا يرسل مسلم واحد الى البعثات ولا تعان مدارس المسلمين الأهلية .

وميزانية الحكومة حوالى ٤٠ مليونا لايخص الضعفاء منها شىء ويمنع المسلمون من التحاكم امام القاضى الا فى النكاح والمواريث كما يمنعون من ادخال اللغة العربية فى المحاكم الشرعية .

ثم تضمنت المذكرة شكايات تتعلق بالمساجد والشعائر واللغة العربية والكتب الدينية ومنع الحجاج مع ان الحبشة فيها دينان منتشران هما الاسلام والدين الارثوذكسى وتطرفوا الى شكاياتهم من مصادرة الحريات وان البرلمان الحبشى فيه ٤٧ عضوا من بينهم ٧ للمسلمين وقالوا ان الضرائب باهظة والمعاملة هناك دكتاتورية قاسية .

استفتاء شعبى

وجاء فى نهاية المذكرة انهم يرغبون فى أن يجرى استفتاء شعبى لنوع الحكومة ويرجون الانفصال عن الحبشة لانهم دولة دام سلطانها ٥٠٠ سنة ولا يزالون مختلفين عن الحبشة فى اللغة والدين والأخلاق .

هذا وقد وعدهم الأستاذ الأكبر بأن يعمل جهده فى مساعدتهم على ضوء مايصل اليه من معلومات .

وقال احدهم : ليس صحيحا ما صرح به الوزير المفوض للحبشة من أن معاملتهم حسنة وان المسلمين هناك يتمتعون بالمساواة » .

ونشرت جريدة (البلاغ) فى عدد ٧ سبتمبر سنة ١٩٤٨ تحت عنوان المسلمون فى هرر يعرضون شكواهم من الحكومة الحبشية) مايأتى :

« جاءنا وفد من مسلمى هرر وقدموا لنا شكوى طويلة ختموها بما يأتى :

لقد تقدم المسلمون الى الحكومة الحبشية عدة مرات بمطالبهم فكان مصيرهم التشريد والتعذيب . =

فى يونية سنة ١٨٨٥ ، فكان جوابها (يناير سنة ٨٦) انه لا حاجة بها الى استعمال المنارة فى البحر الأحمر وانه يجب وضعها تحت تصرف الحكومة المصرية . وفيما يتعلق بالمستودعات كان رأيها أن تتولى حكومة الهند دفع ثمنها من دخلها بشرط أن يقوم الدليل على أن لها قيمة .

= ولما لم يجد المسلمون من وسائل السلم والتفاهم ما يحقق بعض مطالبهم العادلة ومعاملتهم بالمساواة مع مواطنيهم كأبناء بلد واحد حاولوا الدفاع عن حقوقهم المدنية والسياسية أمام اللجنة الدولية التى ذهبت الى الصومال لتحقيق امر المستعمرات الايطالية السابقة فذهب وفد منهم الى مقدشو عاصمة الصومال وكان يمثل جميع المقاطعات التى تسكنها الأكثرية المسلمة فكان نتيجة ذلك العمل ان ازداد اضطهاد الحكومة الحبشية للمسلمين فى الحبشة وارسلت جنودها الحربيين المسلحين بالبنادق والمدافع الرشاشة الى ديار المسلمين عامة فأخذ الجنود ينهبون أموالهم ويأخذون كل مايجدونه من أمتعة وحلى النساء ثم يشبعون الرجال بالضرب ويسوقونهم الى السجن .

وقد قامت مظاهرة فى مدينة هرر يطالب فيها المتظاهرون بالانفصال عن الحبشة والانضمام الى الصومال الكبرى عندما يقرر ذلك فاعتقلت الحكومة الحبشية زعماء الحركة تحت ستار التفاهم معهم ونقلتهم الى جهة مجهولة كما ذهب ضحية هذه الحركة عدد كبير من المسلمين واعتقل نحو ثلاثة آلاف تجرى الآن محاكمتهم فى اديس ابابا ويلاقون الكثير من التعذيب والتنكيل كما نفت الحكومة نحو خمسمائة من أبناء هرر الى جهة غير معلومة وقطعت المواصلات بين الجهات التى تسكنها الأغلبية المسلمة كهرر وهاروسة وولوا .

ونحن مسلمى هرر قد خبرنا الحكومة الحبشية ولاقينا على أيديها أسوا ما عرفته البشرية من صنوف التعذيب والتنكيل والظلم والاضطهاد، وحاولنا أن نصل معها بطريق التفاهم السلمى الى حقوقنا فكان جزاؤنا النفى والتشريد ، لم نجد امامنا ـ بعد هذا كله ـ الا أن نتقدم الى العالم العربى والاسلامى خاصة والانسانية عامة بشكوانا هذه راجين الانصاف فى قضيتنا العادلة ،وذلك لا يكون الا بأن تفصل عن الحكومة الحبشية وتضم الى الصومال الكبرى عندما يقرر ذلك ان شاء الله .

وغير خاف اننا كنا دولة دام سلطانها خمسمائة سنة تقريبا والتاريخ شاهد على ذلك وقد كنا ولا نزال مختلفين عن الشعب الحبشى عامة فى اللغة ، والدين والأدب والأخلاق والعادات ، هذا كله علاوة على سوء معاملة الحكومة الحبشية التى اوضحناها فى هذه المذكرة .

واذا لم تقرر الصومال الكبرى نرجو مساعدتنا فى الانفصال عن الحبشة لنكون تحت رعاية هيئة الأمم المتحدة على أن يجرى استفتاء شعبى بشأن الدولة التى تتولى الأشراف علينا » .

وبذلك أرغمت مصر فى هرر على دفع نفقات الاخلاء واضطر الجنود والموظفون المصريون العائدون الى بيع بيوتهم ومتاعهم بالمزاد . وفى بربرة أصبحت المدينة الجديدة التى بناها المصريون — وهى المسماة «بالشعب» — بينما كان السومال لايزالون يعيشون فى أكواخهم على أرض واطئة بجوارها — وأصبحت المنارة والأرصفة ومجارى الماء الحديثة ، والمستشفى وجميع المبانى الحكومية الفخمة شيئا لايذكر بعد أن تملكها الانجليز .

وكان أمر زيلع عجبا فى تصرفات السياسة الانجليزية وغرائبها . اذ بالرغم من امتلاك انجلترا المدينة منذ سنة ١٨٨٤ فان الحكومة المصرية «ظلت تدفع مرتب نائب القنصل الانجليزى ونفقاته ونفقات الادارة فى بلد أخلى رسميا واحتلته عسكريا جنود صاحب الجلالة [1] » .

وظلت الحكومة المصرية أيضا تدفع للباب العالى مبلغ (١٥٠٠٠ جنيه) مقدار الجزية السنوية عن زيلع المحتلة . وقد قرر مؤتمر لوزان أن تستمر مصر فى دفع أتاوة هذه البلاد التى أخذت منها الى سنة ١٩٥٥ !

وأعجب من هذا أن الحكومة الانجليزية حين طالبتها مصر بأن تقوم هى بدفع الجزية عن بلد استولت عليه كان ردها : «اننا نرى أن مصر ليس لها أن تشكو منا . نحن لسنا مسؤولين عن صفقة سنة ٧٥ الخاسرة . لأن زيلع لا تغطى نفقاتها » .

وأعجب من هذا وذاك أن انجلترا فى أثناء احتلال زيلع أرادت أن تغطى نفسها تجاه الباب العالى بستار من سيادة مصر الشكلية وأن تنتفع فى الوقت نفسه بخدمات مصر فبقيت الجنود السودانية المصرية تحتل المدينة لحساب انجلترا لغاية يولية سنة ١٨٨٧ . ولم يستغن عنها الا عقب مطالبة الجنود فى الشهر السابق (يونية) بأن تغير وتصرف لها ملابس .

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية ، رقم ٧٨ . مجلد ٣٨٦٢ . القاهرة فى ١٣ ديسمبر سنة ١٨٨٢ .

ومع ذلك فان الانجليز استبقوا عددا من الجنود ورجال الشرطة المصريين لغاية ٥ أكتوبر سنة ١٨٨٨ وهو التاريخ الذى أنزلت فيه الراية المصرية التى كانت لا تزال تخفق على المدينة .

أما ماحدث بعد الاحتلال المصرى فى البلاد المختلفة فأمره معلوم . فقد تحولت مناطق النفوذ المصرية على ساحل السومال الى «السومال الانجليزى» و «والسومال الايطالى» و «السومال الفرنسى» وظلت شعوب هذه الجهات فى حالة تأخر شديد بسبب حرمانهم من المدنية المصرية العربية التى ترفع مستواهم وتلائم طباعهم .

وقد ثار السومال على السيطرة الانجليزية منذ تنظيم الحماية فى سنة ١٨٩٨ . ودوخ السيد محمد عبد الله الشهير (بالملة المجنون) حملات انجليزية عديدة وانتصر عليهم فى حروب شعواء طاحنة حتى سنة ١٩١٠ .

وكان هذا الزعيم السومالى نشأ وترعرع فى بربرة فى عهد المصريين الذين ساعدوا على وجود فكرة « الجنس » و « القومية » .

الفصل الثانى عشر

ساحل البحر الأحمر

كانت انجلترا ، منذ عهد محمد على، تنظر بقلق الى امتداد السيطرة المصرية على سواحل البحر الأحمر التى يقطنها شعوب عربية مسلمة . وقد كتب وزير خارجية بريطانيا ، فى ٦ ديسمبر سنة ١٨٤٧ ، الى اللورد كولى : « وصلنى كتابك المؤرخ فى ٣ نوفمبر وكذلك ترجمة الخطاب الذى يطلب محمد على فيه حق الاشراف على ميناءى سواكن ومصوع :

« انه على الرغم من موافقة الباب العالى يعتبر هذا العمل من محمد على اعتداء على الحبشة وهى بلد تحاول بريطانيا العظمى الآن أن ترتبط معه بعلاقات تجارية [1] » .

وفى ١٠ ديسمبر سنة ١٨٤٨ كتب القنصل بلاودر الى بالمرستون يقول بما أن الحبشة المسيحية مستقلة استقلالا كاملا فانه يقترح ضرورة وضع سكان مصوع تحت الحماية الانجليزية .

ولكن بالمرستون عارض فى الفكرة خوفا من اثارة المشاكل وقد حصل اسماعيل ، فى مايو سنة ١٨٦٥ ، على فرمان من الباب العالى بالتنازل له عن ميناءى سواكن ومصوع مع مديرية التاكة .

وقد تمكن اسماعيل ، بين سنتى ١٨٦٥ و ١٨٧٤ من أن يحتل احتلالا

---

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية . رقم ٧٨ مجلد ٢١٨٥ .

فعليا أهم النقط الواقعة على ساحل البحر الأحمر الغربى ، من سواكن الى رأس حافون على المحيط الهندى ، وايجاد ادارة منتظمة فيها . وكانت السفن المصرية الحربية تراقب الساحل باستمرار مما أزعج سلطات عدن وجعلها تشكو من « وجود أسطول مصرى ضخم فى خليج عدن » .

ومعلوم أن الدول بعد شق القناة مباشرة — وبالأخص فرنسا وايطاليا — كانت تتنافس فى وضع قدمها على الساحل والايغال منه الى داخل أفريقيا .

وكان ممتاز بك وقتئذ محافظا لسواكن فعينه اسماعيل محافظا للبحر الأحمر وأصبح ممتاز باشا (١٨٧٠) . وقد قام فى سنة ١٨٧١ برحلة فى جميع مناطق البحر الأحمر وذكر البلاد التى كانت تظللها الراية المصرية فذكر بيلول (شمال عصب) ورهيطة فى جنوبها وعـدن على الساحل وزولا وأمفيلا بالقرب من مصوع . وكل هذه البلاد ستصبح فيما بعد جزءا من أرتيريا .

ولا بأس من الآن أن نذكر حدود أرتيريا : تبتدىء شمالا من رأس قصار فى جنوب سواكن . وتمتد جنوبا الى حلة رهيطة عند بوغاز باب المندب وغربا الى سبدرات قرب كسلا ، وهى أعرض نقطة اتساع فى أرتيريا اذ تبلغ حوالى الثلثمائة كيلو متر .

وقد كانت الراية المصرية تخفق فى معظم البلاد والمناطق التى تتألف منها أريتريا . وكانت أول نقطة استولى عليها الطليان فى منطقة أريتريا حوالى خليج عصب وذلك فى سنة ١٨٧٠ اذ بدأت الشركة الايطالية (روبا طينو) تشترى من الشيخ شحيم زعيم قبائل الدناقل والشيخ برهان شيخ رهيطة الذى كانوا يسمونه سلطانا قطعا من الأرض ، وكان الشيخ برهان هذا يتقاضى مرتبا ثابتا من الحكومة المصرية حتى احتضنه الطليان وقد احتج اسماعيل وطعن فى صحة العقود التى يتصرف

بمقتضاها مشايخ غير مسؤولين فى حقوق مصر وتركيا وكان شيخ رهيطة باع الى الانجليز جزر موسى (سنة ١٨٤٠) كما باع الى الفرنسيين أوبوك سنة ١٨٦٢ فطلب اسماعيل سنة ٧٣ من الانجليز أن يردوا هذه الجزر حتى يقتدى بهم الطليان ولما أخذ رأى السير هنرى اليوت سفير انجلترا فى تركيا قال انه يؤيد فكرة اعتراف الحكومة الانجليزية بحق مصر وتركيا على جميع الساحل الغربى للبحر الأحمر وخليج عدن باعتبار ذلك أفضل الوسائل لوضع حد لتجارة الرقيق والحيلولة دون وقوع نقط من الساحل فى قبضة دول أخرى ووافق أيضا على أن تتنازل الحكومة الانجليزية عن جزائر موسى التى لم تحتلها قط .

وقد عارضت حكومة الهند فى اخلاء الجزر ولكن المبادىء الأساسية التى استند اليها اليوت فى رأيه كانت أساس اتفاقية سنة ١٨٧٧ التى اعترفت فيها انجلترا بسيادة مصر على الساحل لغاية رأس حافون على المحيط الهندى .

وكانت انجلترا تعارض دائما فى اعتداء ايطاليا على حقوق مصر فى البحر الأحمر ، وكانت ايطاليا توغل فى الساحل من ناحية عصب رغما من احتجاجات مصر المتكررة على ذلك التوسع التجارى المزعوم . وقد كتب اللورد سالسبرى وزير الخارجية الانجليزية فى يناير سنة ٧٩ يقول : « لو كان هذا التوسع تجاريا بحتا لنظرت اليه بعين العطف ، ولكن نريد أن نتأكد أنه خلو من كل غرض سياسى لأن البحر الأحمر وترنا الحساس » .

وفى نفس السنة (١٨٧٩) كان غردون اقترح ضم زولا ، وهى ميناء صغير بالقرب من مصوع ، الى الطليان فعارضت الحكومة الانجليزية أشد اعتراض ، وكتب وزير الخارجية سالسبرى الى السير باجيت فى ٧ فبراير سنة ١٨٨٠ يبدى وجهة نظره فى مشروعية احتلال الطليان لخليج عصب قال :

« أيا كانت الأعمال (يريد الاعتداءات) التى تجرى الآن أو فيما بعد فى الأراضى المصرية من السويس الى رأس جردفون وأيا كانت الادعاءات التى يتقدم بها الغير فمما لا ريب فيه أن حكومة صاحب الجلالة ليس فى مقدورها أن تسلك سبيلا آخر سوى الاستمرار فى احترام ما تعتقده : أعنى سيادة الساحل الشرعية ، هـذه السيادة التى أصبحت فى رأى الحكومة الانجليزية تتمثل غير مدافع فى خديوى مصر الذى يحكمها بمقتضى فرمان من سلطان تركيا . وكل ادعاء أن سيادة كهذه ثابتة شكلا وموضوعا يمكن ابطالها أو تعطيلها بواسطة شيخ من المشايخ المحليين من شأنه خلق مبدأ خطير فى نتائجه العامة ، مبدأ لا يسع حكومة صاحب الجلالة ان تسلم به بطريقة سليمة لا غبار عليها [1] » .

ولكن فى سنة ١٨٨١ بدأت انجلترا تغير سياستها نحو ايطاليا والسر فى ذلك تكشف عنه مذكرة فى سجلات وزارة الخارجية الانجليزية كتبت فى سبتمبر تقول « ان الفرنسيين يبذلون أقصى الجهد لاخراج مصر من قبضة انجلترا » .

من ذلك التاريخ أخـذت انجلترا تصانع ايطاليا على حساب مصر وتتخذ منها كما كانوا يقولون « كلب الجنايني » أى الكلب الذى يحرس لسيده أملاكه حتى تحين الفرصة الملائمة ليرد الحارس ما يملك اسما . ومن ذلك الحين ، أى ابتداء من سنة ١٨٨١ أخذت ايطاليا تجرى على سياسة القوة و « التوسع المسلح » .

بدأ الطليان باحتلال رهيطه فى جنوب خليج عصب باعتبارها تابعة لمستعمرة عصـب وفى أغسطس سنة ٨١ طلبت الحكومة المصرية الى الحكومة الانجليزية ارسال مدرعة حربية الى رهيطه لأن سفينة حربية ايطالية منعت انزال جنود مصرية جديدة الى البر هناك .

---

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية رقم ٧٨ مجلد ٢٣٦٥ .

وقد بلغ الأمر بالطليان أن سفير ايطاليا فى لنـدره ذهب الى وزير الخارجية الانجليزية فى ٣ سبتمبر سنة ١٨٨١ وأبلغه أن المصريين يريدون احداث الشغب فى ناحية عصب . وقد أشار فى حديثه الى أن مركز الطليان فى خليج عصب يرتكز من جهة الحق على نفس الأسس التى يرتكز عليها مركز الانجليز فى عدن [١] .

وقد حولت عصب فى يونيه سنة ٨٢ الى مستعمرة ايطالية وقـدم بذلك قانون الى مجلس النواب الايطالى . وفى يناير سنة ١٨٨٥ احتل الطليان بيلول فى شمال خليج عصب وطردوا الحامية المصرية منها بعد أن جردوها من السلاح ، وفى شهر فبراير بالاتفاق مع انجلترا قررت ايطاليا احتلال مصوع بعد بيلول وبسط حمايتها على الساحل من عصب الى مصوع وكان ذلك مبدأ تأسيس أريتريا .

وقد جاء فى وثائق وزارة الخارجية الانجليزية أنه فى فبراير سنة ٨٥ أعلن وزير خارجية روسيا الى سفير انجلترا فى بطرسبرج « بأنه لم يكن هناك أى أساس أو ذريعة تخول ايطاليا الحق فى الاستيلاء على بيلول أو مصوع لا سيما وان كلا البلدين كانت تحتله حامية مصرية ، ولاشك فى أن عمل ايطاليا مخالفة صريحة لروح المعاهدات القائمة [٢] » .

وفى شهر ديسمبر سنة ١٨٨٥ دخل الطليان مصوع وطردوا الحامية المصرية واستولوا على المستودعات ومخازن الذخيرة وجميع أمـلاك الحكومة المصرية ، حتى الخزانة .

ولما طالبت مصر ايطاليا بتعويضات كان مسلك ايطاليا شبيها بمسلك انجلترا فرفضت أن تدفع شيئا . وأكثر من ذلك : كانت مصر تدفع للباب العالى ، نظير التنازل عن مصوع ، ١٧٠٠٠ جنيه جزية سنوية . وقد

---

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية . رقم ٧٨ مجلد ٣٣٦٥ . ٣ سبتمبر سنة ١٨٨١ .

(٢) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية رقم ٧٨ مجلد ٣٨٦٠ .

استمرت مصر فى اداء هـذا المبلغ رغما من احتـلال المدينة بواسطة الطليان ...

وقد قرر مؤتمر لوزان ، كما قلنا ، أن تستمر مصر فى دفع أتاوتها المقررة لزيلع ومصوع لغاية سنة ١٩٥٥ !

وكانت انجلترا من ناحيتها ، منذ سنة ١٨٨٤ ، تحتل ميناء سواكن التى كانت تطمع فى أخذه ، وتعين حكاما انجليز « لساحل البحر الأحمر » .

وقد حاول بيرنج أن يجس نبض نوبار بخصوص سواكن ، وكتب بهذا الصدد فى ٣ أبريل سنة ١٨٨٧ : « انه (نوبار) يفكر من الآن فى اللحظة التى تعود فيها من جديد مديريات السـودان المجاورة الى حظيرة السيادة المصرية ، لا بطريق الفتح ثانية ولكن بطريق العلاقات التجارية ، وكان يرى أن دنقلة وسواكن هما النقطتان اللتان يمكن منهما السيطرة على السودان » .

ولتصريح نوبار أهمية كبرى فى ذلك الظرف لأن شركة انجليزية تجارية على غرار شركة الهند الشرقية كانت تعمل وقتئذ على الحصول من الحكومة على امتيازات تخول لها الحق فى انشاء مركز لها فى سواكن ، لتوغل منها فى السودان ايغالا تجاريا يساعد على السلم .

وتحقيقا لهذا المشروع التجارى السياسى كتب القنصل كامرون ، بتاريخ أول أبريل سنة ١٨٨٧ ، كتابا يقترح فيه لأجل التمهيد للسلم فى السودان الشرقى أولا ، أن يسحب من سواكن جميع الموظفين غير الانجليز (سوريون وفلاحون ومصريون) واحـلال موظفين انجليز مدنيين برياسة كنشنر مكانهم ثانيا ، فتح البلاد للتجارة .

ولكن مشروع الشركة التجارية فشـل بسبب اعتراض الحكومة المصرية .

وفى أثنا ذلك كانت ايطاليا تبسط سلطانها فى داخل السودان الشرقى وتتقدم نحو كسلا التى كانت هدفها ..

فزعج بيرنج من هذا التقدم وكتب الى حكومته ، بتاريخ ١٥ ديسمبر سنة ١٨٨٩ يقول « انكم أبرقتم الى فى ١١ الجارى بأن الحكومة الايطالية تريد الاتصال بزعماء كسلا .

« وفى برقيتكم بتاريخ ١٣ ، تقولون : « ان السياسة التى تعمل على ابقاء قوم آخرين خارج بلاد متوحشة ليس فى مقدورنا نحن أن نحتلها ، سياسة لا يمكن متابعتها أو الدفاع عنها » .

« انى أعترف كل الاعتراف بقوة هذه الملاحظة . ولكننى فى الوقت نفسه أجرؤ على اقامة الدليل على أن حالة السودان لا تطابق تماما حالة بلاد أخرى متوحشة لا تحتلها أو لم تحتلها قط دولة ما متمدينة أو شبه متمدينة . ولا شك من الناحية القانونية ، وان لم يكن من ناحية الواقع ، فى أن السودان جزء من الأراضى العثمانية . وان الخديوى يدفع جزية الى الباب العالى من أجل السودان ..

« ومن الظلم البين أن تستمر الحكومة المصرية فى دفع جزية من أجل مصوع ، وهذا الظلم يتضاعف أضعافا اذا وضع الطليان أقدامهم فى بلد تأمل الحكومة المصرية بحق أن تستعيده فى يوم من الأيام ..

« من الواضح أن الطليـان يريدون امتلاك كسلا ليتمكنوا من التوسع نحو الغرب والانقضاض اذا ساعدت الحوادث على وادى النيل فى الخرطوم أو فى نقطة ما بالقرب من الخرطوم .

« وانى لأجرؤ على الزعم ان الحرص على المصالح المصرية يحتم اتقاء نكبة كهذه واننا لانبالغ اذا قلنا ان توطد دولة متمدينة فى وادى النيل يصير طامة لمصر .. »

وبعد أن أشار بيرنج الى الخطر ، الذى يتهدد النيل من ناحيـة الدراويش ، فى رأى البعض ، قال : « ان القبائل المتوحشة التى تسيطر الآن على السودان لاتملك الوسائل الضرورية أو المهارة الفنية لالحاق أذية حقيقية بمصر . ولكن الحالة تختلف كل الاختلاف فيما اذا توطدت دولة أوربية متمدينة فى وادى النيل ، لأن دولة كهذه ، كما قال كولين مونكريف « تضع مصر فى قبضة يدها » وتستطيع انقاص مؤنة مصر من الماء حتى تحول الى جرداء لازرع فيها ولا ضرع .

« وأيا كانت الدولة التى تحتل أعالى النيل فان هذه الدولة بفضل مركزها الجغرافى ، تهيمن على مصر .

« وفى نظر أوربا ، وفى نظر الشعب المصرى ، وأستطيع أن أضيف ، وفى نظر الكثيرين من الانجليز ، الحكومة الانجليزية معتبرة مسؤولة عن فقد السودان [1] » .

وأخيرا تقرر بمقتضى اتفاق مبرم فى ١٥ أبريل سنة ١٨٩١ ، بين ايطاليا وانجلترا جعل الحد الشمالى لمستعمرة اريتريا الجديدة يبتدىء من راس قصار على ساحل البحر الأحمر ، على أن يسير من هناك فى اتجاه جنوب بغرب نحو العطبرة مارا فى شرقى كسلا ، وقد أضيفت مادة فيما بعد تسمح للطليان بأخذ كسلا اذا استطاعوا ، ومعها جزء صغير من الأراضى المصرية بشرط أن يردوها الى مصر عند الطلب .

وقد ظلت ايطاليا تحتل اريتريا لغاية الحرب الكبرى الثانية [2] .

---

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية . رقم ٧٨ مجلد ٤٢٤٣ .

(٢) لا بأس هنا ان نذكر بهذه المناسبة ان كاتب هذه السطور نشر فى جريدة المصرى بتاريخ ١٤ مارس سنة ١٩٤٨ مقالا تحت عنوان (هل لنا سياسة افريقية !) جاء فيه :

ان سكان مناطق البحر الأحمر واكثرهم من العرب يتطلعون الى مصر ويأملون من مصر ان تعمل على الاقل على نشر ثقافتها فى هذه البلاد .

وهانذا اضع تحت انظار القراء الوثيقة الآتية : =

= الجالية العربية فى اريتريا . المكتب الرئيسى بأسمرة .
شارع بادوليو نمرة ١١١ .
اسمرة فى ٢٦ جمادى الأولى ١٣٦٦ الموافق ١٨ ابريل سنة ١٩٤٧ .
حضرة صاحب الدولة محمود فهمى النقراشى باشا ـ رئيس مجلس الوزراء ـ القاهرة .

نتشرف بأن نقدم الى دولتكم أصدق التحيات والتمنيات وأكمل الاحترام متقدمين الى دولتكم بأجمل التهانى بما تم من جلاء الاحتلال عن القاهرة والاسكندرية فى عهد دولتكم الزاهر آملين من عونه تعالى أن نقدم الى دولتكم قريبا التهنئة الكاملة بالجلاء التام عن وادى النيل وتحقيق كامل الأمانى الوطنية داخلها وخارجها داعين لدولتكم بالصحة والعمر الطويل .

يا صاحب الدولة :

أن رجاء الأمم العربية فى معقد آمالها صاحب الجلالة الفاروق وفى حكومته السنية كبير جدا وفى اريتريا جالية عربية نامية زاهرة تشارك الأمم العربية الأخرى فى هذا الرجاء متطلعة اليكم فى ان تأخذوا بيدها وان تحققوا مطالبها التى تشرفت بأن كتبت عنها الى وزارتى الخارجية والمعارف والمفوضية الملكية المصرية باديس ابابا ، وحين زار البلاد الاريترية الأستاذ عبد الله حسين فى عودته من اديس ابابا انتهزت الطبقات المختلفة هذه الزيارة فأقامت لحضرته الحفلات العديدة منوهة برعاية مصر للعالم العربى والاسلامى والتعلق بصاحب الجلالة مولانا المعظم فاروق الأول ، وباسطة المطالب السياسية والاجتماعية .

أما السياسية فتتلخص فى رجاء العرب الاريتريين فى ان يسمع صوت مصر مجلجلا فى كل مؤتمر دولى أو لجنة دولية تعهد اليها فى البت فى مصير اريتريا السياسى ولعلنا فى غنى عن التحدث عن علاقات مصر ومصالحها التاريخية فيها ونحن واثقون أنه لن يفوتكم ان تعدوا الشعب الاريترى والعربى جزءا من وادى النيل ولسنا الآن فى صدد تفصيل هذه المسائل الدقيقة فدولتكم اعرف بذلك .

أما مطالبنا الاجتماعية فتتلخص فى أن تقوم مصر بتوثيق علاقاتها بهذه البلاد بالوسائل التى تراها وحسبنا أن نذكر هنا من ذلك المبادرة الى ارسال ستة مدرسين مصريين على نفقة الحكومة المصرية انامكن للتدريس بمدرستى الجالية العربية بأسمرة ومصوع وبعثة أزهرية للوعظ والارشاد والاشراف على المعاهد الدينية والمساجد الاريترية واهداء كتب علمية للمدارس والاندية العربية .

ونحن مستعدون لاستقبال المندوب الذى قد تعهدون اليه بدراسة هذه المسائل وتسهيل مهمة هؤلاء المدرسين من ناحية المساكن وتوفير أسباب الراحة لهم مما بسطناه للاستاذ عبد الله حسين وكما هو مدون فى طلباتنا التى قدمناها الى وزارة المعارف ونرفق منها صورة مع كتابنا هذا.

وتفضلوا يا صاحب الدولة بقبول أسمى عبارات التحية والاجلال .

رئيس الجالية العربية بأريتريا .

(الامضاء)

الفصل الثالث عشر

المديرية الاستوائية

أو

مديريات خط الاستواء

كان يطلق على الفتوحات المصرية فى أواسط أفريقيا التى ظلت حدودها منذ حوالى سنة ١٨٧٤ يعتورها التغيير والتعديل بسطا وقبضا بسبب اضطراب سياسة غردون ومآرب السياسة الانجليزية اسم « الاستوائية » أو مديرية خط الاستواء . وأحيانا كانت تسمى « مديريات خط الاستواء» باعتبار مديرية بحر الغزال جزءا من الاقليم الاستوائى ، أو باعتبار تقسيم مديرية خط الاستواء الى مديريات خصوصا وانها كانت تشمل بصفة عامة منطقة النفوذ المصرى فى الأنيورو وأوغندة وما حولهما فى الأصقاع الواقعة فى شمال بحيرة فكتوريا وفى الجنوب الغربى من بحيرة ألبيرت عند منابع النيل .وكانت وقتئذ بلاد الجالا أو الجزء الجنوبى من الحبشة الحالية لايتجزأ من هذه المنطقة ، وكان نفوذ مصر يمتد من النيل الأبيض مارا ببلاد الجالا وبلاد السومال حتى يصل الى ساحل المحيط الهندى فى اطراد مستمر لا يعوقه عائق .

وقد ذكرنا من قبل أن شاييه لونج الأمريكى كان عقد ، باسم مصر ، مع امتيزا ملك أوغندة معاهدة حماية ، ذكرها فى كتابه (مصر ومديرياتها الضائعة) : « لقد تكلمت فى تقريرى الى الحكومة ، بتاريخ ١٦ ديسمبر

سنة ١٨٧٤ ، عن المعاهدة التى وقع عليها الملك امتيزا ووضع بمقتضاها مملكته تحت الحماية المصرية . وهذه المعاهدة أبلغت الى الخديوى وكانت أساس تبليغ رسمى أعلنت به مصر ضم جميع الأراضى الواقعة حول البحيرتين الكبيرتين فكتوريا وألبيرت وقد اختفت من سجلات القاهرة ..

« وعلى الرغم من استقصاء البحث فى جميع الوزارات لم يوجد لها أثر مطلقا . ولعلها فقدت مع جميع المستندات النفيسة والتقارير العلمية التى تمثل خمسة عشر عاما من الجهود والأعمال التى قام بها زملائى الفرنسيون والأمريكيون فى أركان حرب الجيش ، كل هذه الأوراق فيما يظهر ألقاها فى النار ذات يوم ضابط فى الجيش البريطانى أصابته نوبة مخمور » .

وقد كان نفوذ مصر سائدا فى أوغندة ، رغما من دسائس المبشرين والساسة الانجليز ، وكان امتيزا أرسل ابنته الى مصر سنة ١٨٧٤ فأقامت فيها حتى سنة ١٨٨٢ ، وكان فى نية الخديوى اسماعيل أن يزوجها ضابطا مصريا يكون ممثلا له فى بلاط امتيزا ولكن الحوادث حالت دون تحقيق هذه الأمنية .

وقد أشرنا من قبل الى أن قوة مصرية بقيادة الضابط السودانى نور بك محمد قد احتلت ، بناء على طلب امتيزا نفسه ، روباجا عاصمة ملكه على ساحل بحيرة فكتوريا .

١ — أحوال المديرية من سنة ١٨٨٠ لغاية سنة ١٨٨٨

فى سنة ١٨٨٠ فتح أمين ثانية فويرا وجميع المحطات الأخرى التى كان اضطر الى اخلائها بأمر غردون وضم لاتوكا الى المديرية وهى أخصب بقعة فيها « جنة أفريقيا » .

ولا توجد تجارة بالمعنى الصحيح فى لادو لا محطات خط الاستواء الأخرى وبحر الغزال ابتداء من لادو .

كان يوجد فى لادو ثلاثة تجار فقط وهم صبرى وهو مصرى من أهالى الوجه القبلى وروفائيل وهو مصرى قبطى وديمترى وهو يونانى . وكان رأس مالهم جميعا ١٥٠٠ ريال قيمة السلع التى تنحصر فى بعض الأنسجة القطنية والدمور وبعض المشروبات الروحية والمواد الغذائية .

وكانت المواد الهامة المعدة للتصدير هى وحدها المحتكرة وترسل الى الخرطوم وهى العاج وريش النعام وجلود الثيران فالعاج من ممتلكات الحكومة وعلى الأهالى توريده لمستودعات الحكومة حالا عقب صيد الفيلة بدون مقابل (كانوا يكتفون بلحومها وشحومها) وكانوا قبل احتكار العاج يبادلون عليه بالخرز أو بزجاجة من الخمر المغشوشة التى يجلبها التجار (يستثنى من ذلك سكان مملكتى الأونيورو وأوغندة بسبب علاقاتهم التجارية مع الزنجباريين) .

وفرضت الحكومة بعد ذلك على الأهالى توريد العاج بصفة جزية فاضطروا الى اقتناص الأفيال لتوريد أنيابها . وعاد الاحتكار على الأهالى بأضرار أقل كثيرا من التى وقعت على العرب لأن هؤلاء كانوا يجنون مغانم كثيرة من وراء بيعهم العاج فى الخرطوم .

وكان من المتعين أيضا تسليم ريش النعام فى مستودعات الحكومة فتدفع هذه نصف الثمن والجزء الباقى يحجز سدادا لضريبة الحكومة . وكان ثمن رطل الريش الأبيض العالى ١٨ ريالا .. وكانت هذه الأثمان لاتدفع نقدا بل غلة وكانت السلع تقوم مقام النقود المتداولة فى مديرية خط الاستواء فيدفع منها رواتب الموظفين والجند وكذلك الحال فى باقى المعاملات التجارية .

ولم ير فيتاحسان طول المدة التى أقامها الا شحنة واحدة من النقود تحتوى على ٥٢,٠٠٠ ريال بعث بها رؤوف باشا من الخرطوم ليدفع منها

المعاشات المتأخرة ومرتبات المستخدمين لغاية آخر عام ١٨٧٩ وكون هذا المبلغ القيمة التى استعملت للمبادلة عينا فى جميع أنحاء المديرية زهاء عشر سنوات وكانت كل باخرة تأتى من الخرطوم تجلب سلعا بنحو ٣٠,٠٠٠ ريال [١] » .

وكان تموين المديرية يصل بالبواخر من الخرطوم ولكن آخر باخرة وصلت سنة ٨٢ فكان يجب على المديرية أن تعتمد على نفسها بعد انقطاع المواصلات .

وعلى أية حال كانت المديرية منذ انشائها تعمل على توفير حاصلاتها من زراعاتها فكان الضباط المصريون وأمين منذ وصوله يجرون على سنة واحدة متبعة فى جميع البلاد التى فتحها أو أنشأها المصريون فى السودان وسواحل البحر الأحمر وهرر وهى انشاء مبان للموظفين والحكومة وحدائق وزراعات تؤتى الخضر وغيرها مما يستعينون به فى معاشهم ويرفه عنهم والمصرى بطبيعته مولع بالحدائق والحقول فهو مدنى متأنق وقد كان لهذه النزعة أكبر الأثر فى تطور السكان وتحبيب المدنية اليهم .

وقد أشار فيتا حسان ويونكر وأمين الى ذلك فى كتاباتهم ورغما من اختلافهم فى التعبير فان هذه الحقيقة تتجلى باهرة .

قال فيتا حسان « لاشك أن زراعة الذرة البيضاء التى تفضل الذرة الصفراء لأنها تتطلب مجهودا أقل وتأتى بعشرة أضعاف الربح . ويرجع الفضل فى زراعة الذرة البيضاء فى جورجورو الى حواش منتصر الذى أتى بها وتمكن بقوة العزيمة والذكاء والمبادرة وحسن التدبير الى استجلاب وزراعة أشجار الفاكهة من برتقال وليمون وكذلك الخضر

---

(١) الجزء الأول من كتاب فيتاحسان . الفصل الخامس . ص ٦٢ (الحقيقة عن امين باشا بالألمانية) .

من كل نوع ، نخص بالذكر منها البصل ، وكذلك الدخان الذى أحضر بذرته من القضارف بمديرية كسلا [1] » .

وكتب فى فصل آخر فى كلامه عن مكراكا :

« وان أنفع النباتات والزراعات التى أدخلهـا أمين بك فى خط الاستواء زراعة القطن والأرز ويرجع الفضل فى نجاح زراعتهما نجاحا باهرا الى ما بذله حواش منتصر من عظيم المساعدة والهمة التى لا تعرف الكلال . كما نجحت زراعة الذرة والفضل فى نجاحها يعود على أمين بك . وقد أفاد القطن افادة عظيمة جدا فيما بعد وذلك عندما استدعت الأحوال أن يزاول رجال الحكومة وجنودها هم أنفسهم صنع ملابسهم عقب انقطاع المواصلات مع الخرطوم [2] » .

وفى سنة ١٨٨٥ كان حواش منتصر حاكما على جنوب المديرية ومركزه دوفيلة كما كان مرجان أغا حاكما على الشمال ومركزه أمادى . وقد زاره فبتا حسان ووصف الحالة هناك قال :

« ومن باب الاحتياط للطوارىء ملأ حواش مستودعات دوفيلة بالحبوب والمؤونة والزرائب بالأنعام . وهو احتياط مبنى على الفطنة وبعد النظر ، وأنشأ كذلك زراعات واسعة للأقطان وألزم الأهـالى والجنود بزراعة هذا النوع . وبفضل هذا التدبير تمكن فعلا من جمع الجنية الأولى وأخذ جنودة الزنوج فى غزل القطن تحت مباشرة رجل دنقلاوى من فاديبك فتعلموا نسج الدمور . ونشر حواش أفندى

---

(١) الجزء الأول من كتاب فيتاحسان : الفصل الخـامس ص ٦٢ (الحقيقة عن أمين باشا بالألمانية) .

(٢) الجزء الأول . الفصل السابع . ص ٨٣ – ٨٤ . ذكره طوسن باشا فى كتابه (مديرية خط الاستواء) .

فيما بعد زراعة القطن ونسيج الدمور بدرجة أن سكان المديرية من ملكيين وعسكريين أمكنهم أن يكتسوا منه [1] » .

وكان حواش يملك عددا كبيرا من الرقيق يستخدمه فى الأعمال المختلفة مثل زراعة البصل والقطن وصناعة الدمور والأحذية وكانت قطعانه العديدة تستطيع أن تفى بالشطر الأكبر من حاجات المديرية كما تأتى له بايرادات كبيرة .

وكتب جونكر السائح الألمانى فى رحلته الأولى سنة ١٨٧٨ يقول : « ان زراعة الحقول والحدائق هى أول أساس وطيد للتجارة . وهى خير وسيلة للعمل على ترقية الزنوج من الناحية الأدبية بل هى أقرب الوسائل الى مداركهم . والآن يمكن القول أنه على الرغم من الأخطاء الكبيرة التى ارتكبها العرب (المصريون) ضد الزنوج فانهم هيأوا فى مكراكا الظروف التى جعلت تقدم المدنية فى حيز الامكان والتى جلبت للبلاد مزايا حكومة تضم بقايا شعوب كثيرة تحت سلطان واحد قوى .

« ويرجع الفضل الى المسلمين ، وهم الذين تعزى اليهم المطاعن والمثالب ، فى الزام الزنوج بضرورة المعيشة فى هدوء وسلام مع القبائل المجاورة لهم والاقامة على قدر الامكان فى دورهم ومواطنهم والانصراف الى زراعة حقولهم . وهذا العمل يجب أن نقدره حق قدره دون أن نبخسه شيئا . ومما يشرف الحكومة المصرية وضع بلاد الزنوج تحت سيطرتها . وهذا الأمر مكنها أن تفتح بابا لانتشار المدنية فى مستقبل الأيام .

« ومهما بلغ من ثقل النير الأجنبى فهو فى الواقع أفضل للزنوج

---

(١) الجزء الثانى من كتاب فيتاحسان . الفصل الرابع . ص ٤٢ ــ ٤٣ ذكره عمر طوسن فى كتابه (مديرية خط الاستواء) .

من حكم نفس المستبدين منهم اذ أن حكم هؤلاء مصدر حروب لا نهاية لها يفنى فى خلالها بعضهم بعضا [1] » .

وكتب جونكر سنة ١٨٨٢ عن حواش يقول : « حواش أفندى منتصر ضابط مصرى عاش سنوات فى بلاد الزنوج وكان خبيرا بجميع شؤون أعالى النيل ، بلاد مكراكا وورول [2] .

« وهو ذو همة لبق فى معاملة الوطنيين وهذه الصفات وضعته فى مستوى أعلى بكثير من مستوى معظم زملائه الموظفين [3]

وفى يونيه سنة ١٨٨٤ كتب فى أثناء مقامه فى دوفيله : « لقد أطلت مقامى فى دوفيلة وأصلحت من شأنى فقام أحـد الأونباشية بصنع « بنطلون » وصديرى لى من دمور مكراكا وصبغهما [4] » .

وفى سنة ١٨٨٦ كتب جونكر : « وفى ذلك العصر ، رغما من الأزمنة السيئة ، فان أمين عزل بعض كبار الموظفين أمثال عثمان لطيف وكيل المديرية .وأحمد محمود سكرتيره الخاص مما أدى طبعا الى زيادة عدد المستائين . ولكن كان لنا أن نتعزى برؤية العزيمة المبذولة فى فلاحة الأرض بما فيها زراعة القطن التى كانت أهملت قليلا ثم عنى بها . وقد كان لحواش أفندى القدح المعلى فى هذا الميدان ، وقد كسب أرباحا طائلة [5] .

وتكلم أمين باشا فى مذكراته عن مكراكا (سنة ١٨٨١) قال : « فى حدائق الموظفين نجحت زراعة الليمون بأنواعها وكذلك زراعة الشمام

---

(١) الجزء الأول . ص ٤٩٨ ــ ٥٠٠ من كتاب جونكر (رحلات فى أفريقيا) . الطبعة الانجليزية .
(٢) الجزء الثانى من كتاب جونكر . ص ٣٩٦
(٣) الجزء الثانى من كتاب جونكر ص ٤٢٧ .
(٤) الجزء الثالث من كتاب جونكر (الطبعة الانجليزية) ص ٤٠٩
(٥) الجزء الثالث من كتاب جونكر . ص ٥١٨

والبصل . وقد زرعنا القطن لأول مرة هذا العام وحصلنا من أقنين من البذرة على عشرين قنطارا من القطن الجيد [1] » .

وقال بعد ذلك : « ان جوزا Gosa المحطة المركزية فى مملكة أبوقاية Abukaya لم ترتفع الى مرتبة محطة الا منذ بضعة أشهر . وهى ذات موقع جميل جدا لمراقبة الطريق الممتد من مونبوتو الى الشمال والطريق المؤدية الى مركز رول وبحر الغزال . وقد كان نجاح زراعة القطن هنا باهرا بدرجة أنه ساعد على نشوء صناعة النسيج التى يحتمل أن تصبح ذات أهمية كبرى فى المستقبل . ويشتغل السكان — الدناقلة وعبيدهم فى الوقت الحالى — بنسج قماش القطن الخفيف المعروف فى جميع أرجاء السودان بالدمور الذى يناسب الى أقصى حد الجو الذى يعيش فيه . ولكن صناعته هنا أرقى بكثير منها فى الخرطوم . [2] » .

وكتب كازاتى سنة ١٨٨٣ يقول : « يوجد القطن فى أماكن كثيرة فى أشكال مختلفة وهو عند قبائل البارى تظل بذوره خضراء عند نضجها . ويرجع الفضل فى انتشار صناعته الى بعض الدناقلة الذى تولوا صنع المناويل بأنفسهم فأصبح الكثيرون من الأهالى يبتغون رزقهم من نسج الدمور المحلى [3] » .

يتضح مما تقدم أن الزراعة والصناعة كانتا فى تقدم مستمر بفضل المصريين فى مديرية خط الاستواء وان التجارة كانت متقدمة بفضل العرب النازحين فى أوغندة والأنيورو ولكن كانت متأخرة فى خط الاستواء بسبب سياسة الاحتكار التى وضعها غردون .

---

(١) كتاب امين باشا فى افريقيا الوسطى . ص ٣٧٤ (بالانجليزية) Emin Pasha In Central Africa

(٢) امين باشا فى افريقيا الوسطى . ص ٣٨٦

(٣) كازاتى (عشرة أعوام فى مديرية خط الاستواء) . الطبعة الفرنسية ص ١٨٩

ولا شك أن الثورة المهدية قد ربكت الى حد ما الحركة الاصلاحية العامة ونشرت الاضطراب فى المحطات الكثيرة التى أنشأها المصريون على ضفاف النيل الأعلى وفى السهول الممتدة شرقا وغربا وكانت كلها مراكز مدنية ونظام .

وقد كان من نتائج فتح السودان منذ عهد محمد على نزوح التجار المصريين والعرب والسودانيين كالنوبيين والدناقلة جنوبا الى ما وراء الحدود المصرية الى ما بعد فاشودة أى ان هذه الأقطار الاستوائية كانت مفتوحة للتجارة وبدأ احتكاك الزنوج بالعرب قبل الفتح المصرى فى سنة ١٨٧٠ ثم أخذت بعد ذلك تدخل المدنية بطريق واسع منظم فى هذه الأرجاء .

وقد كانت الحكومة المصرية تحمى الدناقلة وتعفيهم من الضرائب ولكن أمين باشا كان يطاردهم بفرض الضرائب عليهم ويضطرهم الى العودة الى مواطنهم وهم وان لم يكونوا من خيرة العناصر السودانية الا انه ثبت أن وجودهم فى بلاد الزنوج كانت له بعض المزايا التى لاتنكر من ناحية المدنية والعمران .

وقد كانت مملكة مونبوتو (أو ما نجباتو كما يسميها جونكر) أقصى ممالك خط الاستواء غربى النيل ولم تكن بها ادارة منتظمة بالمعنى الصحيح الا فى عهد أمين أو بعبارة أدق فى عهد حواش منتصر الذى أخضع زعماء قبائلها وطارد أمير مونبوتو المسمى مامبانجا Mambanga وأوغل فى مطاردته حتى أخضع القبائل المجاورة لمونبوتو وزعيمها بورو Buru لحكومة مصر وكانت هذه المديريات خاضعة اسما لمصر قبل حواش . وقد أنشأ حواش سنة ١٨٨١ محطة سميت باسمه (محطة حواش) فى رأس زاوية فى أقصى الحدود الغربية واقعة فى رأض قبائل البارمبو A-Barmboورئيسها بورو . وقد زار جونكر المحطة الجديدة فى

سبتمبر سنة ١٨٨١ فامتدح تصميمها البديع وجمال البناء وحسن التقسيم والاحتياط لطوارىء الحرب والحريق وما اليهما [1] وكانت هذه المحطة تقع فى شرق نهر الأوله . وتبعد غربا عن بحـر الجبل (النيل) نحو خمسمائة كيلو مترا . ومعظم مديرية المكراكا الغنية وجميع مونبوتو لغاية محطة حواش هى الآن جزء من اقليم الأولة التابع للكونغو البلجيكى باعتبار هذه البلاد قسما من بحر الغزال الذى كانت بلجيكا تطمع فى ضمه كله اليها لولا اعتراض فرانسا .

وقد كانت مديرية خط الاستواء ، فى بداية الثورة المهدية ، تمتد على ساحل النيل من مخرجه فى بحيرة ألبيرت الى ما وراء لادو وكانت تشتمل على القسم الشمالى من الأنيورو وأراضى الشولى والمادى والبارى واللاتوكا والمكراكا والمورى والمونبو . وكانت تمتد من ناحية أخـرى على النيل بين بحيرة ألبيرت وبحيرة فكتوريا لغاية نيامينجو على بحيرة ابراهيم بل الى نقطة أبعد من ذلك نحـو الجنوب فى درجة دون خط الاستواء أو على مسافة حوالى خمسين ميلا من بحيرة فكتوريا .

ولكن فى أثنـاء الثورة المهدية اضطرت الحاميات الى ترك فويرة والمراكز الواقعة على النيل — فكتوريا وتجمعت على النيل من سواحل بحيرة ألبيرت الى ما بعد لادو شمالا .

ومن ماجونجو عند مخرج بحيرة ألبيرت لغاية لادو يمر الطريق بدوفيلة ولابوريه وموجى وكيرى وبيدن ورجاف وغندوكورو ثم يصل الى لادو بعد أن يقطع مسافة ٢٠٠ ميل تقريبـا . ويلاحظ أن أوغنـدة الانجليزية الحالية تبتدىء جنوبا من سواحل بحيرة فكتوريا وتنتهى شمالا فى نيمول . وتؤلف الأونيورو جزءا منها .

وكانت مديرية خط الاستواء فى مجموعها واديا مستطيلا مخصبا تنتشر

---

(١) أنظر الجزء الثانى من رحلات جونكر (الطبعة الانجليزية) ص ٤٠١

فى أرجائه سهول محتفلة بالزرع ومراع ناضرة . وكان اقليم فاتيكو فى بلاد الشولى يسمى « جنة النباتيين » لامتلائه بالنبات والزهر والفاكهة والعطر من كل لون .

وقد ساعد اخلاء مديرية خط الاستواء ، وتجنيد الحاميات السودانية تحت الراية البريطانية بغير مسوغ ، انجلترا أولا على احتلال أوغندة القديمة التى كانت مساحتها لا تزيد على ٥٠,٠٠٠ كيلو متر مربع فى حوض بحيرة فكتوريا بين سواحلها الشمالية والشمالية الغربية وثانيا على ضم الأنيورو ومديرية خط الاستواء نفسها الى أوغندة .

وقد بلغت مساحة أوغندة الجديدة فى سنة ١٩٠٠ بعد أن تكونت واتسعت على حساب مصر وبقوة مصر حوالى ٣٠٠,٠٠٠ كيلو متر (أى ستة أضعاف مساحتها الأولى) وامتدت حدودها الشمالية لغاية غوندوكورو فى جنوب لادو ، التى كانت لغاية سنة ١٩١٤ تكون الحد الجنوبى الأقصى للسودان الذى أخذ فى التناقص والانقباض . وعدا ذلك تنازلت انجلترا للكونغو البلجيكى عن أراض واسعة كانت تؤلف من قبل جزءا من مديرية خط الاستواء على الضفة الغربية للنيل كما تنازلت له عن ساحل بحيرة ألبرت نيانزا الغربى .

وكانت انجلترا مسوقة الى التعجيل باحتلال مديرية خط الاستواء وأوغندة لتسبق فرانسا وألمانيا اليهما من ناحية — لأن بعثات هاتين الدولتين التبشيرية والكاثوليكية المقيمة فى البلدين كانت تعمل على ترجيح كفة نفوذهما — ولتحول من ناحية أخرى دون توطد النفوذ العربى فيهما .

كتب فوتيرز المؤلف البلجيكى : « ان المدنية العربية قد تمكنت فى أقل من عشرين سنة من تغيير اللباس القومى تغييرا كاملا ، ولم يكن ذلك اللباس فى ابان زيارة اسبيك شيئا مذكورا . واليوم أصبح الأوغندا (السكان) يلبسون لبوسهم من الرأس الى القدم ، وكذلك الأنيورو .

وقد حلت تدريجا الملابس العربية مكان « اللباس » القديم المصنوع من لحاء الشجر . وترى فقراءهم يلبسون القميص والحزام والقفطان على أجسادهم والطربوش على رؤوسهم .

« وعقب موت امتيزا ، فى سنة ١٨٨٥ ، خلفه ابنه موانجا . وما كاد يتسلم مقاليد الحكم حتى خاف على استقلال بلاده وبقاء سلطانه من تقدم الأوربيين على بحيرة فكتوريا [١] » .

---

(١) A. I. Wauters Stanley, Au Secours d'Emin Pacha. Paris, 1890

جاء فى مذكرات امين باشا ، لسنة ١٨٧٦ ، مايأتى : « قبل أن يجد العرب طريقهم الى اوغندة والأنيورو ـ بصرف النظر عن منشأة عربية قديمة فى كاراجوا ـ كانت تجارة هذه البلاد منحصرة فى تبادل المواد الضرورية جدا للحياة وكانت قيمة البضائع المعروضة للبيع تتوقف على هوى البائع وعلى حاجة المشترى وقدرته . ولم يكن للنقود أو ما يعادلها وجود ما . ولكن منذ اللحظة التى دخل فيها أول العرب موسى مزورى (كذا) واحمد بن ابراهيم اوغندة بناء على دعوة سونا والد امتيزا تغيرت الأحوال . وقد سهل افتتاح طريق زنجبار ـ رحلة خمسة اشهر فى ذلك الوقت ـ استيطان العرب فى البلاد ووجود وكلاء لهم فى كارجوا واونيامقيزى وفيما بعد على البحيرة على تغيير الأسعار فى اسواق البلاد . وكانت ترد من زنجبار مقادير كبيرة من البضائع وخصوصا المصنوعات والمنسوجات من كل نوع من الاقمشة والاسلحة والذخيرة والنحاس وتجد رواجا عند قوم نهمين فى امتلاك ملابس انيقة وحلى واسلحة . وقد احس الناس بالحاجة فى نفس الوقت الى عملة متداولة فوجدت العملة المسماة « كاورى » لاشباع هذه الحاجة .

« ويرجع الى العرب الفضل فى ايجاد هذه العملة بين الزنوج وقد تعلم الواجندة سريعا كيف يستعملونها . وكانت تنظم الكاورى أو المحار فى خيوط بالمئات . تعادل كل خمسة خيوط منها ريالا ، والعرب هم الذين قرروا هذه القيمة أساسا للتعامل . فكانت المعزة تساوى من ١٢٠٠ الى ١٥٠٠ محارة ، وربطة الملح فى الأنيورو ١٠٠٠ والثور من ٦٠٠٠ الى ٧٠٠٠ وهلم جرا . وكانت الخيوط مقسمة أنصافا فى كل خيط خمسون محارة وكان أقل خيط يشتمل على ٥ محارات لشراء الحاجيات الرخيصة . وقد اعتاد الناس هذه العملة التى كانت تجرى بواسطتها ـ الا فى أحوال المقايضة النادرة ـ جميع المعاملات التجارية .

« وقد حاول امتيزا زمنا طويلا احتكار تجارة الأسلحة فاجتهد فى منع العرب من دخول الأنيورو ولم يتمكن الا حديثا ـ من حوالى خمس =

وكان العرب يفدون من زنجبار ومونباسة على الساحل الى أوغندة بقوافلهم ، ولكن كان الأوربيون لا يرون فيهم الا نخاسين يجب القضاء عليهم مدفوعين الى ذلك فى الواقع بعوامل سياسية بحتة .

= سنوات فقط ـ التاجران الهمامان العربى سعيد بن صيفى والفندى حسن من الوصول الى عاصمة الأنيورو ، من كاراجوا ، وهناك أحسنت وفادتهما ونجحا رغما من النظام السائد فى الحصول على مقدار كبير من السن . وبمجرد انتشار تجارة زنجبار فى الأنيورو جرى استعمال الكاورى (المحار) كعملة فيها للتداول . على ان اغلبية شعب الأنيورو ظلت متمسكة بنظام البدل التجارى . ومهما كان من الأمر فان من دلائل الروح التجارية النشطة عند العرب انهم أوغلوا فى البلاد الى هذا الحد بينما أخطأت ادارة غردون باشا فى مديريات خط الاستواء المصرية فى عدم بذل أقصى الجهد لفتح هذه الأقطار لتجارتنا .

«ويذهب الواجندة بأنفسهم الى زنجبار مرسلين من ملكهم . ويستبدلون بالعاج الأسلحة والذخيرة .

« وكانت غزوات امتيزا وكاباريجا المستمرة فى سبيل الحصول على الماشية والسن وغيرهما تهدف فى نفس الوقت الى أخذ الاماء وكانت فتيات الفاهوما تلعب فى الرقيق نفس الدور الذى تلعبه فتيات الأحباش .

«على أن السن لا يزال اهم صادرات الممالك الاستوائية . وقد كانت لاجراءات الحكومة المصرية الخرقاء (احتكار السن) سببا فى أن كل هذا السن ، بدلا من أن يذهب الى منفذه الطبيعى صوب الشمال صار يتجه نحو الجنوب .

«وقد انتشرت التجارة ونشطت فى البلاد الواقعة بين البحيرات وادت العلاقات الناشئة بين القبائل المختلفة بعضها وبعض وبينها وبين التجار العرب الى جهود صادقة تهدف الى فتح طرق تجارية جديدة وخلق حوائج وطلبات جديدة واجابتها . وقد ظلت الأراضى المصرية فى الشمال، من هذه الناحية ، متأخرة جدا . ولم يحدث أى تقدم بسبب نظام الحدود المراقبة المتعوس والاحتكار التجارى اللذين تجد فيهما الحكومة الى اليوم الوسيلة الوحيدة لمنع السطو على العبيد وتهريبهم للمتاجرة . وكانت نتيجة هذه السياسة تعطيل كل تقدم طبيعى فى ممالكنا دون ان يكون لها أثر حاسم فى القضاء على تجارة الرقيق .

«اليس من الأفضل اذن أن نتخلص من النظام الخيالى العتيق والمبادىء الانسانية المشطة وان نوجد فى هذه البلاد المنتجة ادارة تطابقها وتناسبها لترقية مواردها واجابة مطالبها وحاجاتها ؟» .

(انظر مذكرات امين باشا فى سنة ١٨٧٦ صفحات ١١٣ ـ ١١٨ و١٢٣ من كتاب Emin Pasha In Central Africa. Annotated by Prof. G. Schweinfurth, Prof. Ratzel. C. Felkin and C. Hartlaub. London, 1881

كان امتيازا فى أواخر سنى حكمه منح العرب حرية التـــوطن فى مملكته لا كتجار فحسب بل كأساتذة دينيين ، وقد اعتنق أخوه أمبوحا الاســـلام .

وكانت انجلترا تفكر فى ذلك الوقت فى تنفيذ مشروع سنة ١٨٧٥ المصرى الخاص بايجاد مواصلات بين الساحل ومنابع النيل ونشر نفوذها فى هذه الأرجاء .

كان غردون ، اذ كان حاكما لخط الاســـتواء ، يرى أن أخصب مناطق البحيرات تمتـــد جنوب غوندوكورو وأن الأراضى فى شـــمال غوندوكورو لغاية الخرطوم مغطاة بمستنقعات غير صحية وأنها بسبب طقسها لا رجية فيها ، فكان المنفذ الطبيعى لمناطق البحيرات التى تربطها بالشمال خطوط مواصلات صعبة وطويلة هو من ناحية الشرق صوب المحيط الهندى .

ولا شك أن انجلترا بضمها الى أوغندة الأراضى الواقعة جنـــوب غوندوكورو ضمنت لنفسها امتلاك الهضاب والوديان الخصبة أى أهم قسم فى السودان الجنوبى . ولم تكتف انجلترا باقتطاع أكبر حصة لها بل انها تنازلت للكونغو عن بلاد مكراكا ونيام نيام الغنية فى غرب النيل على حساب مصر متبعة نفس السياسة التى جرت عليها ازاء الممتلكات المصرية فى البحر الاحمر وبلاد السومال .

وقد كان مشروع وصل الساحل ببحيرة فكتوريا بالسكة الحديد موضوع دراسات طويلة منذ سنة ١٨٨٥ . وتم تأسيس شركة أفريقيا الشرقية الانجليزية برياسة وليام ماكينون ومنحت الامتيازات اللازمة. فكانت أراضى الساحل التابعة لزنجبار ومديرية خط الاستواء القواعد الأولية التى تصلح أن تكون أساسا للامبراطورية الانجليزية الجديدة

فى أواسط أفريقيا . ومن هنا كان لابد من «اخلاء» المديرية الاستوائية والعمل على « انقاذ » أمين باشا (الدكتور اشنيتزر) حاكم المديرية .

كان غردون عين أمينا ، فى سنة ١٨٧٨ ، حاكما عاما للمديرية ، وهو يهودى ألمانى يزاول الطب والعلوم النباتية . وكان أشد العناصر اعتدالا فى الحكومة الأوربية المختلطة التى استثارت السودان[1] . وكان جيسى باشا الطليانى ولى غردون الحميم أشدها تطرفا . ولا تزال حروبه الشعواء فى سنة ١٨٧٩ وقتله سليمان بن الزبير ماثلة فى الأذهان . وقد استحضر جيسى فى أواخر هذه السنة عينها الى السودان ، ايطاليا آخر ، كازاتى ، الذى ظل مع أمين منذ ابتداء الثورة لغاية مجىء استانلى سنة ١٨٨٩ .

ويلاحظ أن كتابات جيسى وكازاتى تنضح بكراهية العرب . وقد أرسل كازاتى ، فى أواخر أغسطس سنة ١٨٨٣ ، الى جريدة المكتشف Esploratore بميلان كتابا يصف فيه أحوال السود فى الممتلكات المصرية ، جاء فيه :

«يجب أن نفصل تماما البلاد السوداء (بلاد الزنوج) من البلاد العربية أو التى يهيمن عليها العرب ، وأن نجمع تحت ادارة مستقلة مرحدة أراضى بحر الغزال ومديرية خط الاستواء وأن نوجد بهذه الطريقة حدودا سليمة ترسمها الطبيعة نفسها ، وأن نثبت للزنوج ، الذين هم فى ريب مما نقول ، ان الحكومة مهتمة بأمرهم .

«ان العرب المتفرقين فى البلاد ، بدون مأوى وبدون أى اندماج مع العنصر المحلى ليسوا الا لصوصا أو شحاذين . فيحتم ارجاعهم جميعا الى بلادهم الأصلية وقطع كل أمل عندهم فى العودة . ومتى تمت عملية التطهير هذه — لأن العربى دائما خطر وكثيرا ما يكون أداة تدمير وافناء — وجدت المنطقة الجديدة فى الحال نقطة توازنها واستقامت

(١) The Revolt against Europeanized Egyptian Rule which broke out in 1881-83 (Harry Johnston, Africa. p. 653).

آمورها : ان حكومة السودان قائمة على العنصر العربى الذى يفصل بينه وبين العنصر الوطنى اختلاف اللغة والجنس والميول والعادات[1] » .

لم ير جيسى وصنيعته كازاتى فى العرب أى النوبيين أو الدناقلة الا لصوصا أو قطاع طريق وقد خبر جونكر صديق جيسى أحوال بلاد السودان الجنوبية ودرسها من كثب . قال فى أثناء رحلته الثانية بعد

---

١) Casati. Dix Années En Equatoria

من الغريب انه فى نفس السنة (مارس سنة ١٨٨٣) أبدى أمين باشا نفس الآراء فى صورة مختلفة قال : «من السخف التفكير فى الغاء تجارة الرقيق فى السودان بانشاء مصلحة خاصة بذلك فى الخرطوم وفروع لها. «وقد كان اسماعيل يريد باخلاص تحقيق هذه الفكرة الانسانية فى قلب افريقيا ، ولكن الوسيلة الوحيدة ، فى اعتقادى ، للنجاح هى ضم اقطار الزنوج فى اتحاد واحد ــ بحر الغزال ومديريات خط الاستواء ــ وفصلها فصلا تاما عن أجزاء السودان العربية . ويجب أن يعين لها بعد ذلك حاكم أوروبى كفء» . Emin Pasha In Central Africa. p. 425

وقد كان جيسى يعمل على تحقيق ذلك الهدف فى سنتى ١٨٧٨ و ١٨٧٩ فى مديريات السودان الجنوبية (بحر الغزال ، دارفور ، كردفان)

كتب جيسى فى مجلة Esploratore الايطالية ، بتاريخ ١٤ سبتمبر سنة ١٨٧٩ ، بمناسبة فشل البعثة الانجليزية التبشيرية (الدكتور فلكن والدكتور ولسن) وعودتها من اوغندة : « ان الوسيلة الوحيدة لتنصير هذه الممالك ، فى اعتقادى ، هى الاستعمار على نطاق واسع . اذ بهذه الطريقة يمكن التغلب على الاسلام وكسر شوكته » .

واقترح امين بعد ذلك مد خطوط حديد دولية داخل افريقيا برؤوس اموال اوربية كوسيلة مؤكدة للتوغل والسيطرة : « وعندئذ فقط تصيب دين محمد الضربة القاضية » .

وفى ٤ ديسمبر سنة ١٨٧٩ كتب جيسى : « انى ارغب فى الذهاب الى الخرطوم ولكنى لن استطيع ذلك قبل طرد جميع العرب واخراجهم من هذه الديار » .

وفى سنة ١٨٨٠ كان جيسى يقول : « انهم (العرب) يتهموننى باننى اعمل على اقصاء العنصر العربى ونشر فكرة التحرر ، وتوظيف الوطنيين فى الادارة ، والقيام باستعدادات حربية كبيرة ، ومساعدة هذه المناطق على تحقيق استقلالها يوما ما » (Seven Years In The Soudan, by Romolo Gessi Pasha. London, 1892)

والواقع ان جيسى كان يعمل بسياسته الخرقاء على نشر عوامل الفتنة والخراب فى السودان الجنوبى وفصله عن مصر . وحسبنا أن نذكر =

تركه ديم سليمان « الذى يعد أهم المنشئات العربية فى بلاد الزنوج » لزيارة الأمير اندورومة الزنجى Andorouma : « بعد انتصار جيسى على سليمان أظهر زعماء وأمراء مملكة نيام نيام البعيدون روح المودة فى كل مكان وكانوا يرسلون طوعا واختيارا الرسل والعاج الى الحاكم الجديد ، بل كانوا يحضرون بأشخاصهم فى المحطات لاعلان حسن استعدادهم . ولكن هذا العمل من جانب الحكام الذين حررهم جيسى من ربقة ظالميهم (العرب) قد حمل جيسى على كثرة الاعتداد بالنفس والقيام بأعمال لاتنم عن صدق النظر وخصوصا اخلاء سبيل الجنود الزنوج الكثيرين الذين

= اعترافه بأن « تدمير تجارة الرقيق » كان يكلف مدينة الخرطوم سنويا خسارة لاتقل عن ٢,٨٠٠,٠٠٠ ريال . وطبعا كان ذلك التدمير يشمل التجارة كلها بصفة عامة لأن الحروب وأجراءات العنف وضروب المضايقات والمصادرات والبطش كانت تشل الحركة التجارية وتنشر الاستياء والفوضى .

وقد كان غردون لايجهل أن الغاء تجارة الرقيق معناه القضاء فى الوقت نفسه على التجارة المشروعة وكل تجارة . وقد كان سلطان زنجبار ، فى أبريل سنة ١٨٧٦ ، بناء على الحاح الدكتور كيرك قنصل انجلترا ، حرم فى جميع البلاد الواقعة تحت سيادته ، تجارة الرقيق التى كان يزاولها القوافل الآتية من أواسط أفريقيا الى الساحل . فلما علم ذلك غردون صرح بأن التجارة المشروعة سيقضى عليها ايضا اذ كان من المستحيل الفصل بينها وبين تجارة الرقيق ، ولذلك اتجه تفكيره وقتئذ الى اجتذاب تجارة البحيرات الى مديرية خط الاستواء والخرطوم وذلك بقصر سياسة الاحتكار على العاج المحصل فى الأراضى المصرية اما عاج البلاد الاخرى فيكتفى بفرض ضريبة عليه نظير رسوم الدخل وتكاليف النقل ، ولكن احتكار العاج ، ولو بصفة جزئية محدودة ، لم يكن من شأنه تيسير تنفيذ الفكرة الجديدة وذلك بصرف النظر عن العوامل الأخرى المرتبطة بسياسة غردون العامة فى الأقاليم الاستوائية واذا كانت التجارة المشروعة قد اختفت فى المناطق المصرية من جراء سياسة غردون فمن الصعب اجتذاب تجارة البلاد الأخرى المشروعة الى هذه المناطق لأن العوامل التى أدت الى شل هذه التجارة واحدة فى البلادين . وفى أوائل يناير سنة ١٨٧٦ صرح الخديوى اسماعيل للمالى الانجليزى كيف Cave أن صادرات السودان تقص ثلثاها بسبب اختفاء التجارة المشروعة « التى كانت تسير جنبا لجنب مع تجارة الرقيق » .

كانوا فى خدمة سليمان والعرب . وقد صرح لى فى ذلك الوقت مرارا عن وثوقه بعدم الحاجة الى تسليحات كبيرة مطلقا فى مديريته (بحر الغزال) بعد انتهائه قدر المستطاع من طرد العنصر العـربى . وكان يؤكد أن الزنوج لن يتحولوا عن اظهار ولائهم وانهم عند الحاجة يقبلون الخدمة العسكرية ... على أن جيسى لم يكتف بتسريح العبيد الذين احتموا به والذين كانوا من قبل خدم النوبيين بل سرح أيضا طائفة من الشبان العبيد الذين خدموا فى الحرب ورغبوا فى العودة الى منازلهم . بل لقد ذهب الى أبعد من ذلك وأذن للكثيرين من أولئك بالاحتفاظ بأسلحتهم . وقد انتهز أغلب الجنود المسرحين الفرصـة لا للعودة الى منازلهم بل للعبث والانضواء تحت راية بعض صغار الزعماء لأغراض غير مشروعة . وقد أمكننى حديثا أن أشاهد بنفسى فى داخلية البلاد أمثلة كثيرة من تبجح أولئك الوطنيين المسرحين وتماديهم فى غيهم .

وعلى أية حال قد تمكن جيسى مؤقتا من اكتساب صداقة الزنوج وحكامهم . وقد سلم جزءا من الأسلحة التى أخذت من سليمان الى الكثيرين من كبار زعماء قبائل الزاندة مثل زيميو وسازا واندورومة وآخرين ، وكان يرمى بذلك الى تقويتهم ضد منافسيهم ومساعدتهم على اخضاع القبائل العاصية والقيام بغارات مسلحة لانتهاب العاج وتقديمه للحكومة فى محطات بحر الغزال . وبالجملة كانت خطته ترمى الى الاقلال الى أقصى حد من الحملات التى كانت تنظم من قبل فى هذه المحطات وترسل بقيادة النوبيين لأعمال النهب فى الأراضى الجنوبية . وقد أوصى جيسى زعماء الزنوج الذين سلحهم لجلب العـاج أن يتجنبوا اقتناص العبيـد فى غزواتهم ! على أن الكثيرين من قواد الزرائب القدماء وهم عرب من أيام سليمان أو أبيه الزبير ، كانوا يتوقعون هزيمة سليمان فظلوا على الحياد وقد سمح لهم أن يبقوا كمديرين فى مراكزهم فى المناطق الغربية البعيدة : من أولئك رافاى Rafai وعبد الله وعلى كوبو وآخرون . وقد كان

ذلك دليلا على أنه ليس فى استطاعة جيسى ولا أى حاكم آخر أن يستغنى عن العرب والعناصر الاسلامية فى ادارة بلاد الزنوج .

« ولاشك أن تسريح الفرق السوداء ورفت التراجمة وخصوصا اعطاء الأسلحة لأقل زعماء الدنكا شأنا كان أمرا سابقا لأوانه ولا مسوغ له . واننى لن أذهب الى حد القول أن ثورة الدنكا الجائحة التى حدثت فيما بعد فى عهد ليبتون بك كانت وليدة هذه السياسة الخاطئة . ولكن مما لاريب فيه أن نجاح الدنكا قد سهله ذلك الامتياز [1] . واننى أعلن هنا اننى لا أسلم بمبدأ جيسى الأساسى القائل بأن العـرب هم الذين أوجدوا تجارة الرقيق كلها وانهم أكبر مروجيها .

« ولما كان جيسى يريد الغاء هـذه التجارة فى مديريته كان من المخاطرة — وهذا أقل ما يقال — منح الحكام الوطنيين من أصحاب الحظوة والجاه حق تنظيم حملات بعيدة كانت فى الواقع — بسبب عدم وجود القيود المناسبة — غارات نهب وسلب . وقد رافقت بنفسى فيما بعد بعض هذه التجريدات ولذلك فى استطاعتى أن أشهد وأقرر أن جميع الزنوج ، فى استعمال السلطة الموكولة اليهم ، أشد استهتارا من العرب السودانيين الذين لا ينتمون الى « طبقة » عالية ... وهم أشد قسوة منهم ولايعرفون الا قانون القوة [2] » .

ظاهر مماتقدم أن العنصر الأسود أو المحلى قد انطبع بطابع العنصر العربى واندمج فيه فى السودان الشمالى وفى دارفور وكردفان وان عملية « الاندماج » كانت تسير سيرا حثيثا من النيل الأبيض نحو بحر الغزال

(١) قبائل الدنكا والشيلوك تعيش حول البحر الأبيض ومنها كانت تتالف معظم الفرق السودانية فى الجيش المصرى ، وكانت مساحة أراضى الدنكا — وهم زنوج وثنيون — تبلغ ٦٠,٠٠٠ ميل مربع . وقد ثارت الدنكا سنة ١٨٨٣ وتمكن ليبتون من اخمادها جزئيا ..

(٢) النقط نحن وضعناها اشارة الى النصوص المحذوفة . انظر الطبعة الانجليزية من رحلات جونكر . الجزء الثانى (٩٧ — ١٠٠) .

والبحيرات وكان خير العناصر العربية تنزل جنوبا نحو ممالك البحيرات مع الراية المصرية أو تأتى من الشرق ، من زنجبار والساحل ، باسم التجارة . وكانت محاربة تجارة الرقيق من ناحية وسياسة التبشير والاستعمار هما سلاح أوروبا الوحيد لمحاربة النفوذ العربى الاسلامى فى أفريقيا .

وكان كازاتى كغيره يخشى أن يتم مع الزمن اندماج عناصر الزنوج المنتشرة فى الممالك الاستوائية فى العنصر العربى ، لذلك كان يقترح ارسال بعثات مسيحية فى مديريات الجنوب . وقد نجحت انجترا باحتلالها أوغندة من القضاء على النفوذ العربى وتشريده حول البحيرات وباحتلالها السودان من التضييق على الحضارة العربية المستأصلة فى السودان الشمالى ، وقد بدأت منذ سنوات تعمل على تحقيق فكرة أمين وكازاتى وجيسى بفصل جنوب السودان عن شماله وتنظيم التبشير بين زنوجه .

ويجب أن يلاحظ أن أمين وكازاتى كانا ينتقدان سياسة محاربة الرقيق التى اتبعها غردون . ولكن كازاتى لم يجاهر برأيه الا فى سنة ١٨٨٣ ، أى بعد قيام الثورة — هذه الثورة التى كان غردون يقول انه باض البيضة التى خرجت منها — قال كازاتى : « ان غردون ترك السودان فى حالة اضطراب سياسى تتضارب فيه مصالح متباينة تهدد كيانه . وقد أهرقت الدماء عبثا ، وأدت الوسائل المتطرفة الى تسميم الجو وتهيئته لظهور المهدى ودعوته » .

وقد كان خطر المهدية الزاحفة يهدد مديرية خط الاستواء بعد ما تحولت القوة الروحية الى قوة مادية فى عدة وعديد . وكان أمين ضعيف الخلق مذبذب الرأى كثير التردد لا يفكر الا فى النجاة بنفسه مع الأوربيين من طريق البحيرات الجنوبى ولو ساقه ذلك الى التضحية برجاله .

وبلغ استهتار أمين بأرواح جنوده وأعوانه من السودانيين والمصريين ، وبالتالى بمصالح مصر ، أنه نطق فى ٢٧ مايو سنة ١٨٨٤ — فى ذلك اليوم المنحوس على حد تعبير كازاتى — بكلمة لم تنس قط وكان لها أثرها فى الحوادث الانقلابية التى ظهرت فى مديرية خط الاستواء ، قال : « ان البيض لا خوف عليهم . وانى ضمين لهم بذلك . أما الجنود السود فانى سأتركهم الى صديقى الحميم كاباريجا ، ملك الأونيورو ، وسيأذن لنا بالمرور من أرضه » .

من ذلك اليوم فقد أمين كل سلطان على جنوده الذين أصبحوا يجدون خلاصهم الوحيد فى قوة السلاح فوضعوا البلاد فى قبضة يدهم . وقد بدأوا باخلاء المراكز الشمالية : رومبك وأياك وبوفى . ومراكز مونبوتو والشرق بينما أخذوا فى تحصين أمادى ولادو وتركيز القيادة فى دوفيلة على بعد ١٠٠ ميل من بحيرة ألبيرت .

وقد شاع ، فى أواخر سنة ١٨٨٤ ، أن قوات كبيرة يقودها كرم الله شخصيا كانت تقصد أمادى التى تبعد خمسة أيام من لادو . وفعلا ، فى شهر مارس سنة ١٨٨٥ ، بعد حصار منظم ، اضطرت الحامية نظرا لانقطاع كل مورد عنها وصعوبة المقاومة ضد قوات العدو الهائلة ، الى شق طريقها فى صفوف العدو والانسحاب الى مكراكا . وقد أثخن المهديون فيهم القتل وكانت مجزرة شملت النساء والأطفال ، وكان حاكم المدينة مرجان الدناصورى بين القتلى .

كتب أمين بهذه المناسبة الى المبشر فيلكن : « ظل أولئك الجنود زمنا طويلا لايتقاضون مرتباتهم ولايجدون أهم الضرورات ومع ذلك فانهم قاتلوا قتال الشجعان حتى اذا نال منهم الجوع وأنهكت قواهم الآلام وضروب الحرمان طوال تسعة عشر يوما وأكلوا آخر قطعة من

الجلد وآخر حذاء فتحوا ثغرة فى خطوط العدو ونجوا بأنفسهم [1] » .

وقد طلب كرم الله الى حاكم لادو التسليم قبل أن يتحرك الى المدينة . فما كان من أمين الا أن أسرع نحو الجنوب فوصل فى يونية (٨٥) دوفيلة وفى يولية وادلاى ، وكان هذا الهرب سببا فى فقدان كل ثقة فى أمين وعدم التعويل عليه . وقد قر رأى الجنود وضباطهم على الدفاع عن لادو ولكن كرم الله وعصائبه عادوا أدراجهم من طريق كردفان وزال الخطر مؤقتا عن مراكز أعالى النيل .

وكان جيش المديرية فى ذلك الوقت يبلغ حوالى ١٥٠٠ رجل كلهم من الجنود السود ما خلا الجنود المصريين القائمين بالمدفعية .

وكانت القوات موزعة فى عشرة مراكز يتولى قيادتها عشرة ضباط من المصريين وخمسة عشر من السودانيين .

وكان فى النيل سفينتان بخاريتان « نياسا » و « الخديوى » تساعدان على الدفاع وتكفلان المواصلات بين المراكز المختلفة .

كتب كازاتى يقـول : « اذا كان الموقف لا يزال سليما واذا كان الشرف لم يمس ، واذا كانت مديرية خط الاستواء فى مأمن اليوم من فظائع أشد هولا فان الفضل فى ذلك يرجع الى عزة النفس الغريزية عند السودانيين التى تحملهم على الدفاع عن راية أجنبية للكثيرين منهم حلفوا يمين الولاء لها » .

وسنرى كيف يدافعون عن هذه الراية التى لم تكن أجنبية لأحد رغما من جميع المحن .

فى أواخر فبراير سنة ١٨٨٦ وصل كتاب من نوبار يدعو فيه الى اخلاء مديرية خط الاستواء والعودة الى مصر من طريق زنجبار . وقد

---

(١) استشهد به فوتيرز فى كتابه Wauters Stanley, Au Secours d'Emin Pacha

أعلن رئيس الوزارة المصرية أن الحكومة قدتخلت نهائيا عن ممتلكاتها فى السودان منذ آخر مايو سنة ١٨٨٥ . ووصلت فى الوقت نفسه رسالة من جون كيرك ، قنصل انجلترا فى زنجبار ، يبين فيها سبل ووسائل العودة . فقرر أمين ارسال كازاتى (مايو ٨٦) الى صديقه كاباريجا ليكفل حرية المرور من الأنيورو ، ولكن السودانيين أجمعوا أمرهم على البقاء .

وبينما كان كازاتى يعانى كل عنت عند كاباريجا الذى ألقاه فى السجن استولى الضباط السودانيون والمصريون فى سنتى ٨٦ و ٨٧ على سلطات الحاكم العام واستقر رأيهم على الاحتفاظ بالمديرية .

٢ — حملة استانلى والثورة فى مديرية خط الاستواء

عرفت انجلترا أن مساعيها لم تفلح فى التغلب على تردد أمين وحمل رجاله على العودة ففكرت فى وسائل أخرى لتحقيق أغراضها .

كان الرحالة الروسى الألمانى جونكر وصل فى هذه الآونة (٤ ديسمبر سنة ١٨٨٦) زنجبار قادما من داخل أفريقيا . فاتصل به جون كيرك وأوعز اليه أن يرسل ، بتاريخ ٢٠ ديسمبر ، برقية الى أوروبا ، ينادى فيها بضرورة التعجيل بارسال حملة فى الحال لانقاذ أمين باشا .

وكانت ألمانيا فى ذلك الوقت هيمنت على قسم من الساحل تمهيدا للتوغل فى أفريقيا وتنفيذ سياستها الاستعمارية ، وكانت تفكر بالطبع فى الاستيلاء على مديرية خط الاستواء التى كان يحكمها ألمانى . ولكن انجلترا بالطبع كانت أسبق الى « انقاذ » أمين .

ومن الغريب أن الدكتور فيلكن نشر فى التيمس (٩ ديسمبر سنة ١٨٨٦) مقالا ذكر فيه صورة خطاب وصله من أمين مؤرخ فى ٧ يولية ، جاء فيه : « يسعدنى أن يكون فى استطاعتى ابلاغك اننى فى أمن وطمأنينة وان المديريات كلها هادئة » .

ثم يقول أمين : « فى هذه اللحظة التى تتنافس الدول الأوربية فيها على ضمان ممتلكات لها فى أفريقيا . أحقا أنه لا يوجد الآن فى انجلترا شخص يفهم بذكائه بأية سهولة يمكن اليوم ، بدون انفاق درهم واحد ، الاستيلاء على مديرية بحالها [1] ؟ » .

روى شاييه لونج الأمريكى أنه فى الساعة التى قرأ فيها استانلى هذه السطور كان يحاضر فى الولايات المتحدة فبادر بنقض العقد وأبحر فى الحال بناء على طلب ماكينون رئيس شركة أفريقيا الشرقية التى اكتتبت بمبلغ ٢٠,٠٠٠ جنيه للحملة . وأعجب من ذلك أرغمت مصر على الاكتتاب ، على دفعتين ، بمبلغ ٢٠,٠٠٠ جنيه وعلى اعطاء استانلى فرقة من الجنود السودانية . وكلف جون كيرك فى الوقت نفسه بتجنيد بضع مئات من الجنود والحمالين . وقر الرأى على طريق الكونغو الذى كان اكتشفه استانلى سنة ١٨٧٨ .

فى يناير ٨٧ غادرت الحملة لندرة ومرت بالقاهرة فى طريقها الى زنجبار حيث تكونت نهائيا من ٧٠٩ رهط مقسمة الى سبع فرق : ٩ أوربيين و ٦٣ سودانى و ١٤ سومالى و ٦٢٣ زنجبارى ، وكان يرافق الحملة العربى الشهير (تيبو — تيب) ومعه ٩٠ رهطا من الجنسين ، فيكون المجموع حوالى ٨٠٠ نفس [2] .

وفى ٢٤ فبراير تحركت السفينة من زنجبار ومرت بالكاب (رأس الرجاء) فى ٩ مارس ، وألقت مراسيها فى خليج بناناعند مصب الكونغو فى ١٨ منه .

وفى يناير سنة ٨٨ تقدم استانلى وبعض أعوانه تاركا الحملة الرئيسية وراءه وخف مسرعا الى جنوب بحيرة ألبيرت ونزل فى معسكر كافالى .

---

(١) استشهد به شاييه لونج فى كتابه L'Egypte Et Ses Provinces Perdues

(٢) تيبو — تيب واسمه الحقيقى حامد بن محمد وهو زنجبارى من كبار تجار العرب فى أواسط افريقيا وكان عظيم الدهاء قوى النفوذ إستعان به البلجيكيون فى توطيد قدمهم فى الكونغو ثم حاولوا الغدر به .

وفى ٣٠ أبريل التقى مع أمين وكازاتى فى الجنوب الغربى من البحيرة وأثار مسألة العـــودة : أيريد أمين اطاعة أوامر الخـــديوى ووزيره نوبار باشا ؟ ولكن أمين لم يجد بدا من استشارة الموظفين والجنود فى مسألة بهذه الخطورة . فقرر استانلى أن يصطحب أحد ضباطه (جفسون) أمينا فى رحلته الاستشارية .

وقد استعمل استانلى كل وسائل الاقناع مع أمين لينحاز الى خطته التى وصفها كازاتى وصف شاهد عيان : « بينما كان يعرض تأجيل العودة الى حين الانتهاء من حشد جميع قواته المتفرقة كان استانلى يغذى آمال الحاكم وأمانيه : فبعد أن استنفد كل بيانه فى التدليل على استحالة مقاومة المهدية التى تزداد وطأتها مع الزمن عرض عليه يوما أن يثبته فى الزاوية الشمالية الشرقية من بحيرة فكتوريا نيانزا حتى تتمكن شركة أفريقيـــا الشرقية الانجليزية من الانتفاع بتجاربه فى انشاء مراكز (محطات) على التوالى فى طريق مونباسة » .

وكان بديهيا أن يفكر استانلى فى الوقت نفسه فى احتياز جنـــود أمين .

ومن الآن فصاعدا أخذت ألبيرت نيانزا تلعب دورا فى الحوادث المتعلقة بمديرية خط الاستواء ، وعلى ضفافها سيتم الحشد الذى يسبق الرحيل الى زنجبار .

غادر اســـتانلى البحيرة فى مايو ســـنة ٨٨ ولم يرجع الا فى يناير من السنة التالية (٨٩) . وقد كانت فى خلال هذه الأشهر الثمانية مديرية خط الاستواء ميدانا لحوادث خطيرة غير منتظرة .

ذكر كازاتى [١] وجفســـون [٢] بالتفصـــيل تاريخ هـــذه الأيام

---

(١) Casati, Dix Années En Equatoria

(٢) Jephson, Emin Pasha And The Rebellion At The Equator

الحافلة . وبحسب جفسون ان أغلبية أولئك السودانيين (لعله يقصد الجنود) جندوا من قبائل الدنكا ومادى وبورى والشيفالى ونيام نيام وبونجو ومكراكا ومونبوتو . فهم وعشيرتهم وذووهم لا يحسون أنهم غرباء فى هـذا البلد الذى يستطيعون العيش فيـه لأنه يشبه بلادهم الى حد كبير ويذكرهم بعقر دارهم .

وكان هذا السواد — أو شعب خط الاستواء كما يسمونه فى انجلترا — يتكلم باحترام عن أفندينا : « قيل لهم انه سلطانهم وان العلم الذى كان يطيب لهم أن يروه خفاقا فى كل مناسبة هو علمه » .

وكانت المحطات (النقط العسكرية) فى أحسن ترتيب . كانت مراكز نظام وحضـارة ، فان دوفيلة مثلا كان بها جامع ومدارس وحدائق عمومية . وكان من الميسور الاعجاب بمنظر النهر من طريق يظلل سماءه من جانبيه شجر دواح . وكان الجامع والمدارس مشيدة بالآجر الجميل . وكان يقوم بأمر الجامع والمدارس شيخ مرسل من القاهرة يعلم أبنـاء الموظفين القراءة والكتابة . وكان رجل القانون فى المدينة ومرشدها الروحانى .

ظاهر مما تقـدم أن النظام الذى أنشـأه المصريون — وأعانهم السودانيون فيه — فى قلب مديرية خط الاستواء الواسعة قد وشجت عروقه فى بطن الأرض وأن أربابه من زنوج وسودانيين ومصريين لم يكن من السهل عليهم أن يتخلوا عنه . وظاهر أنهم كانوا فى ريب من نيات آمين واستانلى والانجليز من ورائهما . روى كازاتى : « أنهم يرددون فى كل مكان ، فى تونجورو وغيرها ، ان الطريق وعر (طريق العودة) ، محفوف بالمكاره للأطفال ، لا زاد فيه ولا طعام . وانهم لا يبعد أن يباعوا ببيع السوام للانجليز الذى هم صديق صدق لأمين .

وهذه الأقوال تنتشر من محطة الى أخرى ويعلق عليها ...

والآن نترك كازاتى يقص قصته (أغسطس — أكتوبر سنة ٨٨) مجتزئين بنشر أهم الوقائع :

« ما كاد أمين يرحل حتى جمع قومندان تونجورو المدعو سليمان أغا — وهو نوبى من عبيد البقارة — جنوده وجميع موظفيه المدنيين وأخذ يحثهم على المقاومة ..

« وقد أرسل الكتب تلو الكتب الى مواطنه فضل المولى قومندان فاتيكو ليساعده بقوة فى سبيل انقاذ المديرية من الخراب الذى يجره الباشا (أمين) وان يتزعم الحركة فى محطات الشمال على أن يتكفل هو بتونجورو وامصوا ووادلاى . وقد كان لتلك الاقتراحات صدى بين المتذمرين وبدأت الحركة والاتصالات بين الشمال والجنوب .

« وقد أصدر أمين أمره بشحن جميع الذخائر الموجودة فى المخازن الى دوفيلة فعارض الجنود وتوجسوا خيفة من المستقبل لأنهم تبينوا أنهم أصبحوا غير أحرار فى أنفسهم وان رفضهم الاذعان للأوامر معناه تركهم هم وأسرهم تحت رحمة السكان المحليين والعدو الخارجى .

« أما خطاب ستانلى والتحقيق الذى يقوم به جفسون فماهما فى نظرهم الا خدعة زائفة ... فلم يكن بد من التفكير فى الدفاع عن أنفسهم ودرء الخيانة .

« وانقطعت الأخبار عن رجاف وبيدن وكيرى ولم ترد الا رسائل قليلة من لابوريه غفل عنها الرقباء . وبعد الانتظار بدون جدوى خمسة عشر يوما بين القلق والشك قرر المدير أن يعود أدراجه . وفى ١٣ أغسطس (سنة ٨٨) جمعت الحامية فى ميدان قرية لابوريه وتلا عليها جفسون خطاب استانلى الذى ترجمه الى العربية الباشا المدير ، وطلب اليهم أن يعلنوا رأيهم فحدثت ضوضاء ولكن لم يجرؤ أحد على التكلم . ثم ما لبث أحد الجنود أن اخترق الصفوف شاكيا سلاحه وأعلن للحاكم

غير مكترث أنهم يفكرون فعلا فى الرحيل ولكن بعد الحصاد . فقال جفسون : نريد ردا حاسما ونمهلكم الى الغد . فانحنق الجندى وصاح قائلا : انكم تهينوننا وتكذبون علينا لأن الخديوى يأمر ولا يرجو . ولو كان الأمر صادرا منه لكفل « انقاذ » الجميع ولم يترك كل واحد منا يفعل ما يشاء .

وفى صبيحة اليوم التالى ذهب أمين الى خور أبو . فوصلته هناك رسالة من صاغ دوفيلة ينبئه فيها بتحرج الأمور فى المديرية ثم رسالة ثانية يدعوه الى العودة عاجلا منعا لارتباك جديد . فلم يسع أمينا وجفسون وفيتا حسان الا المبادرة فى ١٩ أغسطس (سنة ٨٨) بدخول دوفيلة من الباب الشمالى . ولكن لم يتقدم أحد للقائهم وكانت الشوارع موحشة لا أنيس بها والمدينة يخيم عليها صمت رهيب كأنها جبانة . ولكنهم ما عتموا أن دخلوا بيوتهم حتى ظهر فجأة نفر من الجند حراسا على مداخلها . وأصبح أمين وحسان سجينين ، أما جفسون فهو ضيف لا يمس بسوء .

وقبل ذلك بأيام قلائل كان فضل المولى ، ومعه اليوزباشى أحمد دنكاوى ، غادر فابو على رأس سبعين رجلا واستولى على دوفيلة بغير قتال وسجن الصاغ وأعلن تحرير المديرية التى عرضها المدير للخطر بدسائسه وسوء ادارته . وأنشئت فى الحال حكومة مؤقتة .

« وقد تطأطأ أمين لما حدث صاغرا .

وفى ٩ سبتمبر ، حوالى الساعة الثالثة بعد الظهر ، ألقت « الخديوى » مراسيها أمام تونجورو . وبعد قليل دخل على فى بيتى جفسون وقص الوقائع المحزنة التى شاهدها .

« ومما ساعد على تسهيل مهمتى أمر صادر من حكومة دوفيلة المؤقتة الى قومندان تونجورو باظهار كل رعاية نحوى ونحو أسرتى ، وقد

وجهت الى دعـوة للذهاب الى دوفيلة اذا كنت أريد اللحاق بالباشا وحضور مناقشات الجمعية العمومية التى ستجتمع فيها .

« استولى الوافدون الجـدد (فى تونجورو) على مخازن الذخيرة وقاموا بتفتيش دقيق فى مسكن فيتا حسان ، وكان يشوب سلوكهم بعض الغلظة والجفاء . وبلغ من تعسفهم أن عاملوا سليمان أغا معاملة المستريب فى أمره ، وهو الذى أشعل النار ... والمثل يقول من يزرع الريح يحصد العاصفة . وكانت اللجنة مؤلفة من ستة أعضاء ، ضباط وموظفين ، برياسة أحمد الدنكاوى . وجمعت هذه اللجنة الحامية كلها وشرحت لها تاريخ الحـركة الثورية وأهم أغراضها : تحرير المديرية وانتصار العدالة فى جميع الأراضى التابعة للخـديوى ... استحسان وتصفيق من الجميع .

« وفى يوم ١٣ تحركت اللجنة الى آمصوى ، وأمرت ، رغما من بعض اعتراضات قومندان المحطة ، بأن ينقل ثلاثون صـندوق « جبخانة » الى دوفيلة كان استانلى أودعها فى مخازن المحطة .

« وبعد أن أتمت اللجنة معاينة المخازن وتنظيم الادارة من جديدقصدت وادلاى التى أصبحت مقـر الحكومة وملاذ الكثيرين من الموظفين ، المصريين بنوع خاص والفارين من استبداد قومندانات المحطات النائية .

وقد نزلنا من المركب فى وادلاى ، فى يوم ١٨ ، وفى مساء اليوم ذاته اجتمع مجلس عام ، تتألف أغلبيته العظمى من الضباط والموظفين المصريين ، لبحث الطرق الكفيلة بنجاح الحركة الثورية واعداد برنامج للعرض على جمعية دوفيلة . وقـد انتهز المصريون الفرصـة ليمسكوا بأيديهم زمام الأمور ويمنعوا كل رأى معتدل من التسرب الى الحركة . وقد أعدوا ضد الحاكم (المدير) ورقة اتهام ظهرت فيها الأحن الشخصية .

وبعد ركوب البحر يومين قضيناهما فى صحبة فئة نشوانه خلعت العذار وصلنا دوفيلة . وذهب جفسون الى شقته وهى فى مسكن الباشا .

وقد دهش حين رآنى أذهب توا لمقابلة فضل المولى رئيس الحكومة المؤقتة الذى أذن لى بالمكث لدى أمين وحضور جلسات الجمعية التى ستتناقش فى مصائر المديرية .

ومما لاريب فيه أن الحزب العسكرى حين دبر هذه الحركة التى أحدثت تغييرات كبيرة فى سياسة ادارة مديرية خط الاستواء لم يكن يفكر فى قلب المدير مكتفيا بايجاد مجلس بجانبه ليشاركه فى المسؤولية . ولكن المصريين لم يقنعوا بهذا الحل وكانوا ذوى عدد فى وادلاى وقد استبانوا تفوقهم الذى كفتله معارفهم ، ونجحوا فى عمل تحقيق ادارى واتهام المدير والطبيب (الصيدلى فيتا حسان) والصاغ قائد الكتيبة الثانية .

وفى ٢٣ سبتمبر سنة ١٨٨٨ افتتحت فى دوفيلة الجمعية العمومية للنظر فى هذه المسائل المدرجة فى جلستها .

وفى صبيحة الغد اجتمع الأعضاء ومعهم ثلاثة من أساطين الولاجين الخراجين — الموظفان صبرى والطيب والضابط مصطفى أحمد — الذين يعضدهم على جابور . ونجحوا فى حمل الجمعية على توجيه الاتهام والموافقة على مشروع مرسوم بعزل أمين وفيتا حسان ووقف الصاغ .

وفى نفس اليوم أبلغ نص المرسوم الى أمين وكان موقعا من الحاكم الجديد ، والصاغ حامد الذى قررت الجمعية بالاجماع ترقيته الى رتبة قائممقام . وتقرر فى الوقت نفسه استمرار سجن الباشا والدكتور والصاغ . وقد نصحت أمين بأن يذعن ويسلم . وأخيرا تذكر الثوار أن استانلى قد يعود واتفقوا على اقصاء المساجين الثلاثة فى المحطات الشمالية حتى يجعلوا من المستحيل عليهم أى هرب .

وفى ٢٨ سبتمبر ، فى تباشير الصبح ، أبلغنى سرا الصاغ سليم مطر أن مجلسا من بعض الزعماء منعقد عند اليوزباشى فضل المولى .

وكان يرأس اللجنة المكلفة باجراء التحقيق فى ادارة أمين رئيس الحسابات الذى سبق عزله من وظيفته . فلا غرابة اذن أن يصدر قرارها باجراء تفتيش فى منزل الباشا والدكتور للبحث عن الوثائق والبضائع والذخيرة الضائعة .

« وبعد نصف ساعة من نزولنا من المركب فى وادلاى ، فى الخامس من أكتوبر ، أحاط الجند بمنزل أمين — الذى عينت وكيله — وبعد الفحص والتفتيش فى كل مكان . ترك لى أعضاء الوفد صورة محضر عليه امضاءاتهم .

« ومن ترنجورو ذهب الأعضاء الى آمصوى ولكن سرعان ما وصلتهم دعوة بالعودة عاجلا الى دوفيلة حيث وصلنا فى يوم ٣٠ .

« وكانت الأخبار التى سبقتنا اليها سيئة لأن ثلاث سفن بخارية آتية من الشمال ألقت مراسيها أمام (رجاف) وأنزلت جنودا هجموا على المحطة واستولوا على الحصن بعد مقاومة قصيرة من الحامية . وقد مات ثلاثة ضباط وثلاثة موظفين موتة أبطال فى الدفاع عن مدخل الحصن . وكانت مجزرة مملوءة بالفظائع أعمل المنتصرون فيها القتل فى الرجال والنساء والأطفال على السواء . وبعد أن أتموا ذلك العمل الحربى الرائع . أرسل العرب كتاب تهديد الى أمين حاكم مديرية خط الاستواء . وقد قص فيه عمر صالح ، قائد المهدى ، أعمال سيده الجليلة فى القتال وطلب التسليم .

« حمل ذلك الكتاب ثلاثة من الدراويش فانتشر الذعر بين الثوار وفى غروب شمس يوم ١٥ نوفمبر وصل نبأ نكبة جديدة : لقد هزم المهديون ، بالقرب من رجاف ، الجنود التى يقودها القائم مقام . واقترب الخطر منا بصورة رهيبة فقد الكل معها صوابهم . ولذلك لم يفكر أحد فى الاحتجاج حين تسلم فى الغد سليم مطر القيادة العليا . وكان أول ما عنى به البر بوعده : وفعلا عقد الضباط اجتماعا قرروا فيه نقل المساجين .

وفى صبيحة يوم ١٧ ، أديت تحية الشرف لأمين الذى صعد بين طلقات المدفع ، الى ظهر السفينة التى أقلتنا الى وادلاى » .

كان المهديون جاءوا من الخـرطوم على ثلاث سفن بخارية وتسعة زوارق وبعد أخذ رجاف ، التى حاول المصريون عبثا استردادها ، وجعل مركز قيادتهم فيها ، احتلوا تبـاعا بيدن وكيرى وموجى ولابوريه وخور أيو .

وفى الخامس عشر من شهر نوفمبر (٨٨) تقدم المهديون الى مدينة دوفيلة وضربوا عليها الحصار أربعة أيام وكان يحميها ٥٠٠ رجل بقيادة سليم بك مطر . وقد سببت بطولة المدافعين خسائر فادحة فى صفوف المهديين فتصدعوا وولوا الأدبار . فساعدت هزيمتهم الماحقة على تدعيم مركز الحكومة الثورية .

كان سليم مطر يمثل العنصر المعتدل فى هذه الحكومة وكان فضل المولى الرئيس الفعلى للمعارضة المتطرفة . ولذلك كان حزب استانلى (كازاتى ، جفسون ومن اليهما) يعتمد على سليم فى وصل الحبال المقطوعة مع الحكومة الجديدة وتهيئة السبيل الى الاخلاء .

وصل فى أثناء ذلك استانلى الى البحيرة (١٦ يناير سنة ١٨٨٩) وأنشأ معسكره على هضبة تهيمن على السهل ، بالقرب من قرية الزعيم كافالى . وهناك علم من البريد المرسل من جفسون حالة المديرية ففكر فى « اختطاف » أمين أولا . يتضح ذلك من كتابه الى جفسون بتاريخ ١٨ يناير : « استعمل كل حيلتك ودهائك فى اقناع أمين وأحضره معك انى أريد انقاذه فاذا تردد من جديد وقعت فى حيرة وارتباك » .

وفى ٦ فبراير وصل جفسون الى كافالى . وفى الغد كتب استانلى الى أمين . وفى ١٦ أبلغ أمين استانلى أنه منذ اليوم السابق فى انصابه Nsabè ومعه السفينتان البخاريتان وطائفة أولى من الجند تريد مغادرة البلاد .

وفى الثامن عشر ترك أمين سفينته وتبعه كازاتى وفيتا حسان الصيدلى وسبعة ضباط بينهم سليم مطر وحواش منتصر مؤلفين وفدا مرسلا الى استانلى .

وفى ١٩ منه (فبراير ٨٩) وصلت من الداخل بقيادة استيرز ونلسون مؤخرة الجنود التى كان استانلى تركها قبل شهرين عند مازامبونى وكان أرسل اليها حديثا بريدا يأمرها فيه بالوصول الى كافالى عاجلا حتى يركز كل قواته ويستعد لمواجهة أى هجوم طارىء ..

وقد تقرر فى اجتماع تمهيدى عقد اجتماع عام فى اليوم التالى . وفى ذلك اليوم استقر الرأى على أن يخطر الجنود المتفرقون فى المحطات المختلفة هم وأسرهم بالاخلاء على أن يمنحوا مهلة كافية للتوجه الى معسكر انصابه على شاطىء البحيرة حيث يكون التجمع .

وفى يوم ٢٥ ، عادت السفينتان ثانية من انصابه وعليهما طائفة جديدة من اللاجئين . ووصلت أمين رسالة من وادلاى تنبئه أن الثوار عادوا الى التمرد ، فى غيبة سليم بك ، وانهم خلعوه وولوا بدله زعيما منهم .

رأى أمين أن آماله فى استعادة سلطته قد ضاعت كلها فترك معسكره وانتقل الى معسكر استانلى على الهضبة . وتقرر اعتبار شهر مهلة كافية للحاق الموالين برئيسهم وأن يكون الرحيل بعد ستة أسابيع أى فى ١٠ أبريل . وعندئذ غادر سليم والضباط كافالى لتهيئة أسباب الاخلاء .

وبعد ثلاثين يوما من سفر سليم ظهرت فى الألبيرت نيانزا سفينة بخارية تحمل خطابا لأمين من البيك وخطابا آخر من أحد الضباط الثوار الى « مبعوث الحكومة المصرية الجليلة » يطلب الى استانلى السماح له بالتمكن من العودة الى مصر فى حراسته . وقد أحيط أمين علما أن سليم أرسل الى تونجورو دفعة أولى من اللاجئين وانه كان فى ذلك الوقت يشرف على عملية التخلى عن دوفيلة الى وادلاى كنقطة تجمع .

بادر أمين بتبليغ استانلى هذه الأخبار « المشجعة » وأبان له ضرورة مهلة ثلاثة أشهر أخرى لتركيز جميع القوات حول كافالى . ثم طلب اتخاذ قرار فى هذا الشأن .

عندئذ تقرر استلاب أمين وأخذه بالقوة . وقد روى كازاتى هذا الحادث . قال :

« كان أمين لايدرى ما يصنع . كان شديد الرغبة من ناحية فى اطالة المسافة بينه وبين زعماء الثورة وكان من ناحية أخرى يأنف أشد الأنف من أن يسلم نفسه للانجليز مثقلا بالقيود والأغلال وأن يكون أشبه بغنيمة يزدان بها مهرجان انتصارهم .

«كان استانلى لا يستطيع صبرا . وفى صباح ٥ أبريل أعطى التعليمات المعتادة ثم قصد أمين : وبعد أن أخذ عليه عهدا بأن لا يبوح لأحد بما سيدور بينهما من حديث أبلغه بصوت قاطع أنه حدثت فى الليلة الماضية محاولة سرقة الأسلحة فى مساكن الزنجباريين .

— ثم أضاف قائلا : انها مؤامرات تحاك ضدى وضد الحملة . انى أعرف تماما أن الرد على قرار السفر الذى اتخذناه هو المقاومة .

— انى لا أفهم ما تعنى بما تقول . وانى أعتقد شخصيا أنه لا أحد يجرؤ على محاولة القيام بما خيل اليك .

— دعنا من اللف والدوران يا حضرة الباشا فليس ذلك من شيمتى. انى أعرض عليك حلين فاختر أيهما شئت الآن : لقد عقدت النية على تطويق المعسكر غدا صباحا بالزنجباريين واصدار الأمر بالرحيل فى الحال. وانى أحس فى نفسى القوة على استعمال أسلحتى اذا لقيت مقاومة. ثم سأسافر معك ومع من يريد من أتباعك . واذا كنت تستنكف من العنف فانى مستعد لترحيلك خفية فى حراسة أجناد يوثق بهم ثم ألحق بك بعد ساعات . ولك الخيار .

— من المستحيل أن أسلم باقتراحيك . ولن أناقش أولهما . أما الثانى فأنت تعلم أنه يتعذر على ترك كازاتى وفيتا وماركو .

— لا تفكر فى هؤلاء . فانى متى تمكنت من انشاء معسكر فى أحوال ملائمة عدت اليهم بنفسى وانتزعتهم بالقوة ، اذا دعت الحاجة ، من أيدى المصريين .

— ولكنى لاأرى الفائدة من استعمال وسائل كهذه بما أننا سنتحرك فى يوم ١٠ .

وهنا هاج استانلى وماج وتملكه الغضب وضرب الأرض برجله وصاح بصوت مختنق :

تعسا لكم Goddam وستقع تبعة الدم المهراق على رؤوسكم ! ثم انطلق الى الخارج وصفر بصفارته وذهب الى خيمته ورجع حاملا البندقية فى يده وظروف الذخيرة فى حزامه . واصطف الزنجباريون فى الميدان . وكان عدد منهم يحرس مداخل المعسكر . وقد قوضت الخيام وكومت أكواما صناديق الذخيرة والعفش .

« شاهدت هذا المنظر الخارق من عتبة مسكنى ورأيت هذا العرض العسكرى الغريب ، فاعتقدت لأول وهلة أنه استعدادا للسفر تقرر اجراء «مناورات» . . وعبثا أسأل المارة فلا مجيب وأخيرا أرسلت الجندى المكلف بخدمتى الى أمين فعاد ينهب الأرض قائلا ان الباشا يتأهب للرحيل فى الحال . فذهبت بدورى فوجدته أصفر اللون من الخنق والزمج ثم قال بصوت مرتجف :

— سنرحل . ولأول مرة فى حياتى صبت على الاهانة والسباب . لقد خرق استانلى كل مبادىء اللياقة .وقد وعدت بأن لا أتكلم ولذلك ألتزم الصمت .

وكان الباشا تحت سطوة الخوف . وكان يخشى أن ينفذ من آن لآخر الاقتراح الأول .

وقد جمع فى أثناء ذلك فى الميدان كل من كان حاضرا من رجال حكومة خط الاستواء — ضباطا وجنودا وموظفين وخدما — وكان القوم جميعا فى حالة زعج وقلق . لايرون فى كل هذا الهرج نذير خير . وكنت مع أمين آخر من وصلوا .

وصاح استانلى : — اذا كانت عندكم شجاعة فصوبوا الى صدرى بنادقكم فهأنذا وحيدا أمامكم بغير سلاح .

وقد بلغ هيجانه درجة نسى معها أنه يحمل سلاحا قويا فى يده وان مائة من الزنجباريين المسلحين واقفون وراءه وقفة متأهب للقتال .

— أنا وحدى الآمر الناهى هنا فمن شاء منكم أن يقاومنى قتلته بسلاحى هـذا ووطئته برجلى . فلينتح هـذه الناحية كل من يريد اتباعى منكم .

حـدثت فى أثر ذلك حركة كاملة متسقة أشـبه بحركة قطيـع من الشاه .

ومنذ ذلك اليوم كان المعسكر يبدو وكأنه فى حالة حصـار اذ ضوعفت نقط المراقبة والدوريات التى تمر طول الليل . وقـد حرم الخروج وكل من يخرج يؤخذ بمخنقه .

وقد دل الاحصاء على أن عدد الأشخاص التابعين للحملة ٣٥٠ ، منهم ٢٩٤ مزودين بالسلاح وان عدد القادمين من مديرية خط الاسـتواء ٥٧ رهطا ليس معهم الا ٤٠ بندقية .

٣ — تكوين أوغندة الجديدة (١٨٩٠ — ١٨٩٨) .

كان انتزاع أمين أول تمهيد للسيطرة الانجليزية على أعالى النيل . وعلى أثر اتفاق أول يوليه سنة ١٨٩٠ الذى عقـد بين انجلترا وألمانيا

بخصوص مناطق النفوذ فى أفريقيا الشرقية تقرر ارسال لاجارد الى أوغندة لعمل معاهدة تكفل لانجلترا التسلط فى هذه البلاد .

وكان يصحب لاجارد ٥٠ جنديا سودانيا ، بقيادة شكرى أغا ، كلهم من بقايا الجيش الصغير الذى (أنقذه) استانلى . وقد نجح لاجارد فى سياسته التى تداول بين الوعد والوعيد من حمل موانجا على امضاء المعاهدة فى ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٩٠ .

وفى ٣١ يناير سنة ١٨٩١ وصل أغنده اليوزباشى ويليامز ليعمل تحت امرة لاجارد وكان معه ١٠٠ سواحلى (عرب الساحل) و ٧٥ سودانى جندوا فى مصر لحساب الشركة .

وقد برع لاجارد فى سياسة « فرق تسد » وتغلب على جميع الصعاب وانتصر على الحزبين الاسلامى والفرنسى اللذين كانا يزاحمان الحزب الانجليزى فى أوغندة . بل سلط مسلمين على الواغندة المسلمين وقهرهم .

وكان يمثل الحزب الانجليزى منذ سنة ١٨٧٧ مبشرون من الكنيسة الانجليزية . ثم انضم اليهم موظفو الشركة والحكومة الانجليزية فى حين أن الحزب الفرنسى كان لايمثله الا المبشرون الكاثوليك ، الآباء البيض ، الذين وصلوا أوغندة فى سنة ١٨٧٩ .

وقد كفل لاجارد بتحريم استيراد الأسلحة فى أوغنـــدة استعلاء الحزب الانجليزى الحزبين الآخرين وأهالى أوغندة معا .

ولكن ضربة المعلم الحقيقية التى مهدت السبيل لسيطرة الانجليز على أوغندة والأنيورو ومناطق البحيرات كانت تجنيد القوات السودانية التابعة لمديرية خط الاستواء .

كتب جونستون يقول : « ان لاجارد هو الذى جلب القـوات السودانية الى أوغندة . وكان يتعذر فى ذلك العصر أن يلجأ لاجارد الى

وسيلة أخرى اذا أراد أن يوطد السلام بين الأحزاب المتنازعة ويثبت الرقابة البريطانية . ولم يكن يخطر على البال فى ذلك الوقت ارسال جنود من الهنود الى أوغندة وكان يستحيل أيضا العثور على جنود آخرين مدربين قادرين على احتمال الجو غرباء عن كل نفوذ فى أوغندة [1] » .

فى شهر ديسمبر (سنة ٩١) ذهب لاجارد ومعه طائفة من السودانيين الذين أتوا معه فى أوغندة وعسكر فى أعالى هضبة تشرف على بحيرة ألبيرت . وهناك اتصل فى الحال بسوداني خط الاستواء .

وكانت قد حدثت حول هذه البحرة حوادث منذ أن غادرها أمين (مايو ٨٩) الى أن وصل لاجارد (سبتمبر ٩١) :

فى ٨ مايو سنة ٨٩ غادر استانلى وحزبه مزامبونى . وفى المساء وصل البريد الى أمين منبئا بأن قلاقل جديدة فى وادلاى قد شلت كل مجهود لتنفيذ أوامر استانلى وأن فضل المولى بك قومندان وادلاى قد انحازت اليه معظم القوات فتوجه بها صوب التلال بعد أن استولى فى ظلمة الليل على المخازن والذخائر .

وكان سليم بك فى أثنـــاء ذلك ذهب الى امصوا ، فى ٢٢ أبريل ؛ وهناك طلب ثانية الى استانلى أن يقف فى الطريق لينتظره فأبى . وبعد زمن هرب بعض الجنود من كتيبة استانلى ووصلوا الى كافالى حيث كشفوا لفصيلة سليم الصغيرة عن المكان الذى خبأ فيه استانلى الذخيرة ؛ (٣٥ صندوقا) .

بلغ نبأ هذا الاكتشاف فضل المولى بك بينما كان معسكرا فوق تلال فانزارى وآسى بين امصوا ووادلاى وكانت قواته فى هذه الآونة قد تضاعفت على أثر انضمام قوات ورفقاء سليم اليها . فأسرع بارسال ٣٨٠

(١) Harry Johnston. The Uganda Protectorate. 2 Vols (vol I. p. 237)

جنديا استولوا على ذخائر كافالى ومروا ، فى طريق عودتهم ، بامصوا حيث عاملوا سليم بك معاملة خشنة وسجنوه ولكن أطلق سراحه بعد ذلك بقليل فانسحب مع خلصائه الى كافالى ورفع الراية المصرية عليها . وكانت حاميته تتألف من ٩٠ رجلا — عدا ٣٠٠ امرأة وطفل — ولكن معارك طاحنة نشبت مع الوطنيين أفقدته ٥٠ منهم .

ثم تبين لفضل المولى بك إستحالة الاحتفاظ بقوات كبيرة على التلال فعاد الى وادلاى . وهناك اتصل سرا بالدراويش الذين كانوا راسخين فى رجاف . وقد نصبوه أميرا وكان ينتظر قدومهم فى وادلاى ولكن حاميات هذه المدينة قررت حينئذ التخلى عن زعيمها والنزول للانضمام الى سليم بك فى كافالى . وقد غادرت وادلاى حوالى مارس سنة ١٨٩١ وقطعت المسافة بينها وبين كافالى فى أربعين يوما ، وكانت القوة مؤلفة من ٨٠٠ جندى وثيق السلاح وافر الذخيرة يتبعهم ١٠,٠٠٠ نفس من الرجال والنساء والأطفال .

فى هذه الفترة بالذات (أبريل ٩١) ، قبل وصول جموع قوات وادلاى ، كان أمين باشـــا عاد من الساحل الى كافالى وبرفقته الدكتور الألمانى اشتولمان وقوة من الزنجباريين . وقد أبلغ أمين سليم بك أنه أصبح يشتغل فى خدمة الحكومة الألمانية وانه من الأفضل أن يضم قواته الى قوات أمين فى ظل الراية الألمانية .

أجاب سليم من فوره أنه رعية مصرية وأن رجاله جنود فى خدمة الحكومة المصرية فمن المستحيل والحالة هذه تحقيق طلب أمين . ولم يجرؤ أمين على الذهاب الى وادلاى واكتفى بالتصريح عن نيته اكتشاف البلاد الكائنة فى الغرب وفى الشمال الغربى . ثم طلب متطوعين . وبعد المكث بضعة أيام فى كافالى استطاع أن ينتزع من رهط سليم أربعين

رجلا بادر أكثرهم ، فى أثناء الطريق الى الهرب والعودة الى كافالى [1] .

وكانت طليعة قوات وادلاى وصلت الى كافالى فذهب سليم بك الى ماهاجى ليرافق بقية القوات القادمة . وفى أثناء غيبته وصل لاجارد بالقرب من كافالى . وبعد أيام قلائل كانت قوات مديرية خط الاستواء كلها مجتمعة فى القرية . ويؤكد لاجارد أنها كانت تنوى التحرك

---

(١) كان امين عاد مع حملة استانلى ولكنه عند وصوله الى الساحل دخل خدمة الحكومة الالمانية وعاد الى بحيرة البيرت ليحاول بنفوذه الاستيلاء على مديرية خط الاستواء ليوطد النفوذ الالمانى عند منابع النيل ولكنه لم ينجح فى مهمته . وقد بقى فى هذه الأرجاء حتى قتله العرب فى سنة ١٨٩٢ . وقد كتب احد العارفين ببواطن شؤون العرب هناك اوسكار بومان مقالا فى (الجريدة الحرة) Neue Freie Presse التى تصدر فى فينا فصلا عن اسباب موته جاء فيه :

«لا شك ان امين ما كان يتعرض له أحد فى طريقه لولا حوادث أعالى الكونغو التى بدلت الموقف تبديلا تاما . ذلك أن مسلك حكومة الكونغو الى ذلك الوقت نحو تجار الرقيق العرب كان مسلك المتانى المتودد فى الظاهر . ثم قر الراى فجأة على اتخاذ اجراءات حازمة لقمعهم فارسلت حملات كثيرة ضدهم ، وكانت احداها برئاسة كيركهوفن توغلت شمال أرويمى الملاصقة للمنطقة التى كان فيها امين مع رجال سيد بن عبيد . وقد حدثت مواقع دامية وعصف (كيركهوفن) بعدة معسكرات عربية واستولى على كميات كبيرة من مخزون العاج ، فاوغر ذلك صدور العرب الى أقصى حد ، وكانت النتيجة المباشرة قتل الكثيرين من وكلاء الشركات البلجيكية التجارية الذين يعيشون فى اعالى الكونغو وكانوا على اتم وفاق وصفاء مع العرب .

«وكان العرب من قبل يخشون مغبة قتل الأوربيين ولكنهم اصبحوا لا يبالون بشىء بعد ان اثيرت عليهم حرب افناء لا رحمة فيها .

«على انه رغما من كل ذلك فانه ما كان احد من العرب يتعرض لحياة امين لأن العرب الافريقيين كانوا ينظرون اليه كشخصية شرقية كبيرة ، وكانوا بسبب علمه الواسع بالاسلام يعتبرونه الى حد ما وسيطا بينهم وبين الالمان . ولكن امين قد اضطر الى اتباع خطة العداء الصريح نحو العرب حين عصف بمعسكر اعداء « الحماية » الالمانية ، تجار السلاح العرب فى ماجو MaoJo على ساحل فكتوريا نيانزا ، وأعدم زعماءهم واستولى على مقادير عظيمة من البضائع والأسلحة » ..

(أنظر ص ٢٩٢ — ٢٩٣ من الجزء الثانى من كتاب حياة امين باشا

Emin Pasha. His Life And Work By Georg Schweitzer 2 Vols.

صوب الجنوب (صوب أوغنده فى الغالب) بمجرد وصول آخر قسم منها الى كافالى .

وفى ٧ سبتمبر عسكر لاجارد بازاء القرية السودانية ومقر سليم الذى كان فى الناحية الأخرى من نهر صغير يفصل بينهما .

وفى ١١ سبتمبر اجتمع الزعيمان . وكان سليم سودانيا ضخم الجثمان ، رفيع البنيان ، عظيما جدا فى خلقه . وكان من ضباط الألاى السودانى الشهير الذى اشترك ، تحت قيادة بازين ، فى حرب المكسيك . وكان حاكما لامرولى فى أيام غردون . قال لاجارد يصف لقاءه سليم بك : « لقد ذكرنى طويلا كيف شاب رأسه فى خدمة الخديوى وأنه لن يتحول عن ولائه لراية قد خاطر بحياته مائة مرة فى سبيلها ، وانه لن يتردد فى الانضمام الى طواعية اذا كان عندى « تصريح » من الخديوى ، وأنه بدون ذلك لن يخدم تحت راية أخرى [1] » .

وبعد مفاوضات طويلة وعد لاجارد بطلب اذن من الخديوى ، فقبل سليم بوضع قواته تحت امرة الضابط الانجليزى حتى يصل رد الخديوى . وفى الغد أراد سليم أن يشترط أن تكون له السلطة التامة على جنوده وأن يظل الجنود مترابطين فى مراكز متدانية لغاية القرار النهائى ، فأبى لاجارد ثم حاول توطيد السلم فى مديرية خط الاستواء أو بعبارة أدق الاستيلاء عليها من جديد بواسطة قوات سليم ، ولكن سليم عارض بقوة .

وكان هذا التأجيل القهرى لحظة لاجارد الخاصة بمديرية خط الاستواء ، بعد أن جلا عنها المصريون جميعا منذ استقرارهم فى كافالى فى أقصى الجنوب الغربى من بحيرة ألبيرت ، مدعاة الى التفكير المر فى

(١) F. D. Lugard, The Rise of our Eastern African Empire, 2 vols. 1893 (Vol. II p. 210).

نتائج حملة استانلى . قال لاجارد : « ان نتيجة حملة الانقاذ كان يرثى لها على الأقل من ناحية أن حماة السودان الجنوبى الطبيعيين وذادته قد سحبوا منه ليتركوا البلاد نهبا للفوضى والحرب المدنية والدراويش » .

ثم ختم لاجارد قائلا : « لا أقصد بذلك توجيه أى نقد صريح الى حملة الانقاذ ، لأن نتائج كهذه لم تكن متوقعة [1] » .

كتب هذا سنة ١٨٩١ والواقع أن سياسة الاخلاء التى أرغمت عليها مصر منذ سنة ١٨٨٣ فى السودان وملحقاته كانت نتائجها واحدة ...

وقد قضى سليم وأعوانه القليلون فى كافالى أكثر من سنتين عاشوا فى خلالها عيشة قوم متحضرين : « لقد جلبوا معهم بذرة القطن وزرعوه وجمعوه فى الحقل ، وعلى مناولهم البدائية نسجوا « قماش » المعاطف و « البنطلونات » التى كانوا يلبسونها . وكانوا لا يزالون يتداولون قطعا من العملة المضروبة ، وكان الكتبة المصريون قائمين بكتابة الكتب الرسمية المرسلة من سليم الى محطاته المتقدمة والى مرؤوسيه من الضباط . وبالجملة كان يوجد وسط المظهر الوحشى للجنود اللابسين جلود الحيوان ، والنساء العاريات ، والأدواخ المصنوعة من القش . مجهود ظاهر ، لحز رؤيته فى النفس ، للمحافظة على النظام الذى يدعوه باعتبارهم جنود حكومة متحضرة [2] » .

وفى أثناء عرض عسكرى حدث فى ١٧ سبتمبر ، قبيل الرحيل ، لم يستطع لاجارد أن يملك عواطفه أمام ذلك المنظر المؤثر الحافل بعلائم البطولة والولاء : « كانت كل كتيبة تمر وموسيقاها فى المقدمة . وقد أخبرنى سليم أن أولئك الجنود — حوالى الـ ٦٠٠ — كانوا كل مابقى من ٣٠٠٠ مقاتل . وفعلا كان الكثيرون منهم مشوهى الوجه بالجروح

(١) Lugard, Vol. II. p. 213

(٢) Lugard, Vol. II. p. 218

ومات الآخرون فى أثناء القتال من أجل رايتهم . وكان من المستحيل أن لا تعرو الانسان هزة اعجاب لرؤية أولئك الجنـود المتروكين وهم يحملون فى سيرهم راية بعد أخرى ممزقة ومخرقة من أثر الملاحم الشديدة التى اشتبكوا فيها مع المهديين . وكان يبدو عليهم التعصب فى ولائهم لشارة الخديوى . وكان بينهم رجل كبير السن مرزأ فى عقله منذ حصار دوفيلة يسمى بلال بك ، وكان جسمه مغطى بالجروح وذراعاه لا تسعفانه بعد أن مزقهما الرصاص كل ممزق ، كانت حماسة ذلك الرجل لا تعرف حدا ، وكان لاينفك يقاطع بابتهالاته ودعواته كل حركة » .

وقد تم بعد ظهر ذلك اليـوم الاتفاق بين لاجارد والحاميـة على الرحيل . ولكن لم ينس لاجارد قبل تحركه أن يعقد معاهدات مع كبار الزعماء المحليين الثلاثة : كافالى وكاتونزى وموجينى وأن يعطيهم راية الشركة لتحل محل راية الخديوى !

وقد عمل بعد ذلك لاجارد ، فى أثناء رحلة العودة الى أوغندة ، على تقسيم قواته الجديدة وترك معظمها عن قصد موزعا بين حصون ومحطات كثيرة واقعة على حدود الأونيورو وفى جنوب طورو Toru وهذه الأخيرة مملكة حديثة خلقتها الشركة وكان يحكمها أمير اسـمه كازاجاما من أسرة الأونيورو الملكية .

وقد وكل لاجارد الى ضابط انجليزى ، دى وتتون ، السلطة الفعلية فى المديرية ليكبت الملك والسودانيين ثم انحدر الى أوغندة فى منتصف ديسمبر سنة ١٨٩١ بعد غيبة ستة أشهر .

وفى أواخر الشهر (ديسمبر) دخل لاجارد أرض أوغندة وقرر انشاء محطة فى ميناء واقع بين جزيرة لوامبو واليابسة ، وترك فيه قوة صغيرة بقيادة ضابط سودانى ذى عزيمة واخلاص اسمه فرج أفندى ، وخمسة وعشرين من الصناع السودانيين جاءوا من كافالى مع أهلهم وذويهم .

كان المجموع ١٥٠ رهطا . وكان لاجارد يقدر المزايا الكبرى للانتفاع بأولئك الصناع فى بناء السفن وترقية التجارة فى ذلك القسم من أوغندة بل وفى التأهب للمعارك المقبلة .

وقد لخص لاجارد أعماله فى اثنـاء الستة الأشهر الأخـيرة من سنة ١٨٩١ ، قال : «لقد عقدنا معاهدات ووضعنا تحت حماية الشركة كل البلاد الواقعة فى غرب أوغندة لغاية حدود الكونغو وعلى طول مجرى الرويزورى لغاية بحيرة ألبيرت فى الشمال . وقد أغلقت تقريبا جميع طرق استيراد الأسلحة والذخيرة ، وشيدت سبعة حصون ، وضمت بحيرة ساليه ، وتم « انقاذ » السودانيين واقرارهم مع ضباطهم فى المديرية الجديدة وعين دى وتتون والملك الشاب كازاجاما لتنظيم شؤون البلاد وادارتها ومراقبة أى خروج عن الجادة من ناحية السودانيين (كذا) . وقد عبد طريق للنقل من بحـيرة فكتوريا الى بحيرة ألبيرت . وأخيرا أحضرت معى مائة من خيرة المقاتلين ليحلوا محل الحمالين فى أوغندة ، وكانت هذه القوة كافية وقتذاك بينما كانت لنا فى الحصون المختلفة قوات احتياطية واسعة نستمد منها فى أية لحظة [1] » .

وفى أثناء الطريق ، بالقرب من كامبالا وصلت الى لاجارد الأوامر باخلاء أوغندة فى الحال لأن الشركة قـررت الانسحاب الى الساحل وتوقيع معاهدة جديدة مع موانجا . وكانت هذه الأوامر مرسلة من مديرى الشركة فى لندرة ومؤرخة فى ٤ ديسمبر سنة ١٨٩٠ — أى منذ سنة — وقد أملتها صعوبات الشركة المالية وحالة المديرية المضطربة فى ذلك الوقت .

وفعلا حين عاد لاجارد الى منجو فى أوائل سنة ١٨٩٢ كان الكاثوليك والبروتستانت مشتبكين فى حروب مدنية فظيعة . وقد هاجم الحزب

---

(١) Lugard, Vol II, p. 282

الفرنسى حصن لاجارد على تل كامبالا ولكنه رد على أعقابه . ولجأ الملك موانجا الى الفرار ورفعت راية الشركة على قصره الخشبى . وكان وضع نفسه تحت حماية المبشرين الفرنسيين اللاجئين الى جزيرة بولنجوجوا Bulingugwe فلما هاجم لاجارد هذه الجزيرة [1] لاذ الملك هربا بالحدود الالمانية . وقد فاوض لاجارد موانجا بواسطة نسائه وهدده ان لم يعد بتنصيب امبوجو ، زعيم الحزب الاسلامى ، على العرش ، وبمهاجمة الفرنسيين ، من الجوانب . ان لم يذعنوا ، بواسطة السودانيين النازلين فى الطورو والواغندة المسلمين . مما اضطر موانجا وحلفاءه الكاثوليك الى العودة الى عاصمة البلاد كامبلا فى أوائل أبريل وتوقيع معاهدة صلح بين الطرفين .

وفى أثناء ذلك كان كاباريجا هاجم حصون السودانيين ولكنهم قهروه وأرغموه على طلب الصلح . وكان كاباريجا أكبر حليف للمسلين فى أوغندة .

حاول لاجارد بعد ذلك تسوية المشكلة الاسلامية فاقترح اسكان الواغندة المسلمين فى بقعة من الأرض محصورة بين المنطقة الكاثوليكية والمنطقة البروتستانتية ليكون من السهل مراقبتها ولتكون من ناحية

---

(١) كتب دارسى Darcy فى كتابه Cent Années de Rivalités Coloniales يقول : « سار لاجارد على رأس قوات عسكرية عظيمة وتوغل لغاية منجو Mengo مقر الملك موانجا وفرض عليه معاهدة حماية ، ثم اقلب يهاجم الكاثوليك بذريعة واهية وطردهم فاطردوا فى جزيرة كبرى ببحيرة فكتوريا كان يوجد فيها حول الملك والمبشرين الفرنسيين عدد ضخم من اللاجئين من الرجال والنساء والأطفال . وقد صوب لاجارد مدافعه ضد اولئك الضعفاء العزل فافنى قسما كبيرا منهم ، ثم امعن فى سياسة التدمير والتقتيل وارخى العنان لقواته وانصاره فحرقوا كل قرى الآباء البيض ومحطاتهم وكنائسهم ومزارعهم ، وكان لاجارد لايجهل ان محو الكاثوليك معناه محو النفوذ الفرنسى فى أوغندة ، ولذلك لم يبق اثر من العمل الذى تعب فى تشييده مواطنونا (١٨٩١) » .

أخرى نقطة توازن بين الحزبين . ولكن لاجارد كان يريد اضعاف الحزب الاسلامى الى أقصى حد فاشترط على الواغندة تسليم ملكهم امبوجو . وكان سليم بك هو الرجل الوحيد الذى باستطاعته حمل المسلمين على قبول شرط كهذا . قال لاجارد : « فى اليوم التالى لامضاء المعاهدة مع موانجا (أى فى ١١ أبريل) ذهب الرسل المسلمون ليحيطوا حزبهم بشروطنا فأرسلت معهم سليم بك الذى كنت أثق فى اخلاصه كل الثقة والذى كانوا يسمونه ملك « الترك » وتعنو النفوس لمكانته العالية . وقد كلف باستعمال كل نفوذه لدفع المسلمين الى قبول شروطى والتخلى عن مليكهم . وفى حالة نجاح مهمته كان عليه أن يذهب فى الحال صوب الطورو وتولى قيادة السودانيين ، مكان دى ونتون الذى توفى ، وتقريب الحصون من أوغندة . وكنت آمل بهذه الطريقة ايجاد تهديد محسوس خلف الحزبين الاسلامى والفرنسى ومنع خطر أى تهور من ناحية السودانيين فى الحصون البعيدة نظرا لسهولة المواصلات مع كامبالا .

وقد اضطر سليم الى أن يحلف على القرآن لامبوجو « أنه سيكون شخصيا مسؤولا عن أى أذى يلحق به من ناحية لاجارد » .

وتمكن لاجارد فى النهاية بفضل السودانيين وزعماء منهم أمثال سليم بك وفرج أفندى — وهذا الأخير من جنود كسلا وأبطالها القدماء — من اقامة السيطرة الانجليزية فى أوغندة والأنيورو على قواعد وثيقة . وانتهت مهمته فى يونيه سنة ١٨٩٢ .

وقد كانت عودة لاجارد الى لندرة فى سبتمبر سببا فى اثارة مسألة أوغندة بحذافيرها والتفكير فى حلول الحكومة الانجليز محل الشركة فى ادارة مملكة تمتد من مونباسة الى النيل الأبيض وتبلغ مساحتها وقتئذ ٣٠٠,٠٠٠ ميل مربع .

ولذلك بادرت حكومة غلادستون بارسال جيرالد بورتال

Gerald Portal ليكتب تقريرا عن الحالة فى أوغندة واعلان الحماية الانجليزية عليها .

* * *

ترك بورتال زنجبار قاصدا أوغندة فى أول يناير سنة ١٨٩٣ وكان برفقته الصاغ أوين Owen وبركلاى Berkeley قنصل صاحب الجلالة ومدير ممتلكات الشركة فى مونباسة و ٢٠٠ رجل مسلح من زنجبار . وكان بورتال يعول كثيرا على هذه القوة « كعامل جديد ذى شأن فى التسوية المحتملة لمسألة أفريقيا الشرقية كلها » . ولكن خاب ظنه فى الطريق واتضح له كما اتضح لجميع الضباط « أنهم أشد الناس كسلا وأقذرهم ، وأنهم أحط مجموعة من الرجال قدر له ، لسوء الطالع ، أن يتعامل معهم [١] » .

وقد وصل المندوب (قوميسير) الجديد الى كامبالا فى مارس سنة ١٨٩٣ . وهناك وجد الصاغ ويليامز الذى نيطت به ادارة البلاد بعد سفر لاجارد واليوزباشى ماكدونالد وجيدج Gedge مراسل التيمس .

وبمجرد وصوله قرر وضع يده على جميع الحاميات السودانية وارسال أوين الى مملكة الطورو لتنفيذ هذه الخطة . وفى أول أبريل نصب علم الحكومة الانجليزية مكان علم الشركة . وبعد أن تجمعت لدى أوين قوة مؤلفة من ٥٠٠ سودانى « وكل اليها عمليا مهمة الدفاع عن البلاد [٢] » .

وقبل أن يغادر البلاد أرسل تقريره الى روزبيرى وطلب تعيين ماكدونالد مندوبا لأوغندة وملحقاتها . وقد ألح فى تقريره فى ضرورة عدم التخلى عن أوغندة « التى تهيمن بمركزها الحربى على أعالى النيل

---

(١) Gerald Portal, The Mission To Uganda. London, 1894 p. 9

(٢) Lugard, Vol. II, p. 559

والبحيرات » . وألح أيضا فى المطالبة بانشاء خط حديد بين مومباسة وبحيرة فكتوريا [1] باعتبار أن مسألة تمدين السكان ، والاشراف التجارى والسياسى على مياه النيل الأعلى ، والقضاء على الحروب الداخلية هى قبل كل شىء مسألة نقل ومواصلات .

وبينما كان بورتال فى طريقه الى الساحل حاول ماكدونالد التخلص من الحزب الاسلامى ورئيسيه امبوجا وسليم بك . وما كاد يصل بورتال الى جواسوماسا ، على بعد ٢٠٠ ميل من كامبالا ، حتى بلغته رسائل من ماكدونالد تطلب عودته « بسبب الاختلافات الخطيرة مع الحزب الاسلامى وتذمر القوات السودانية » . وقد اضطر بورتال الى الوقوف زمنا فى كافيروندو Kavirondo وهناك وصله بريد جديد من أوغندة ينبئه بأن لا ضرورة لعودته (يوليه سنة ٩٣) : ادعى ماكدونالد أن رئيس الجنود السودانيين حاول سوقهم الى التمرد ليتآزروا مع المسلمين ضد المسيحيين ، ولكن الفتنة قد قضى عليها كما أن سليم بك وبعض زعماء الواغندة قد أرسلوا مع جيدج كأسرى أو كنفيين . وقد وصل جيدج فى ٢٦ يوليه الى موميا وسلم الى بورتال « العاصى » سليم ، وخليطا كبيرا من النساء والأطفال السودانية التى كان يراد ترحيلها الى الساحل ، وأخا الملك موانجا ، آمبوجا زعيم الواغندة المسلمين الذى كان يستحب ابعاده [2] .

وفى يوم ٢٧ (يوليه) سار بورتال مع عالمه ليجتاز طوال ثلاثة أسابيع بلادا وعرة موبوءة تعرقل الحركة فيها سيول الأمطار المنهمرة بلا انقطاع وفيضان الأنهر والمستنقعات الغزيرة .

وفى ١٦ أغسطس سنة ٩٣ فى منتصف الليل ، مات سليم ، بداء فى

---

(١) بدأ انشاء السكة الحديد فى سنة ١٨٩٦ وتم فى سنة ١٩٠٣ .

(٢) Gerald Portal, The Mission To Uganda p. 262.

القلب . ولم يجد بورتال فى مذكراته ما يقوله عن موت ذلك السودانى العظيم : ولاشك أن القضاء على الحزب الاسلامى وزعمائه الذين أصبحوا ثقلا على الانجليز كان أمرا مبيتا ومتفقا عليه بين بورتال وماكدونالد فى كامبالا نفسها .

وقد كتب لاجارد ، بهذه المناسبة ، يقول : « أنبأتنا البرقيات حديثا أن ماكدونالد قد أثبت تهمة الخيانة على سليم والتواطؤ مع الواغندة المسلمين لقلب الانجليز الخ.. واذا كان لى أن أحكم بمقتضى التقارير التى وصلت فى انجلترا فان الحذر الذى أبداه سليم بك حين بان له أن المسلمين لم يعاملوا بالانصاف لا يمكن تسميته « خيانة » . وقد كان فى ذلك الوقت يموت بداء عضال ، ومع ذلك أرغموه أن يسير نحو الساحل فمات بالطبع . وان تاريخ الحوادث الذى رويته فى كتابى ليثبت أن سليم ، قد دفعه اخلاصه لى الى المخاطرة بحياته ، وان اليه يرجع الفضل بصفة خاصة فى التسوية التى تمت مع المسلمين ، وذلك فى وقت لو أنه أراد أن يخون لوجد الطريق ميسرا أمامه اذ كان السودانيون فى الطورو على مقربة منه ، وكانوا يطيعونه طاعة عمياء ، وكان حزب الواغندة المسلمين لا يتردد فى قبول الدعوة . ولكن سليم ظل أمينا ، وانى أعرف الرجل الذى كنت أصاحبه . فلابد أن يكون قد حدث تجرد غريب من اللباقة ليتحول هذا الولاء الخالص الى عداوة ، مع أن سليم كان رجلا يشارف الموت ! زعموا أن سليم صار كثير الاعتداد بنفسه بسبب الطريقة التى عاملته وعامله بها وليامز . وان مثل هذا الاعتداد غير مقبول عند مرؤوس أجير . ولكن سليم لم يكن ضابطا «مجندا» أجيرا حين كنا فى أوغندة . كان حائزا لرتبة البكوية فى الجيش المصرى وهى ثانى رتبة فيه .وقد تولى القيادة السنوات الطوال فى مناطق كثيرة ، فلم يكن من اللائق مطلقا أن يعامل بغتة معاملة ضابط صغير . وكان من المتفق عليه بيننا أن يعود الى مصر وكان يجب أن يسافر بمجرد تجنيد السودانيين .

وانى ليحزننى شخصيا أن أفكر أن ذلك الجندى القديم الذى اختاره غردون لتولى القيادة فى امرولى وأنقذ بشجاعته وحنكته دوفيلة وخاطر بحياته فى سبيل اخلاصه لى قد أبعد على عجل وهو فى حالة موت ، ذليلا مهانا ، ليهلك فى الطريق طريدا شريدا [1] » .

أما سواد الحزب الاسلامى الأعظم ، بعد سفر بورتال ، فقد شتته المسيحيون ومحقوه طبقا لخطة مدبرة بلا شك بين بورتال وماكدونالد والمبشرين الانجليز .

وفى مايو سنة ١٨٩٤ خلف الأميرالاى كولفيل ماكدونالد بصفة مندوب لحماية أوغندة الجديدة ، وقد أقام فيها أكثر من عام . وأهم أعماله استعانته بالسودانيين فى اذلال كاباريجا ملك الأنيورو وابادة قوته ، ورفع الراية الانجليزية فى وادلاى فى مديرية خط الاستواء القديمة ، وضم أجزاء واسعة من الأنيورو الجنوبية الى مملكة أوغنده ، واعادة تنظيم ادارة الحماية ، وجعل العاصمة فى اينتيب Entebbe

ولكن لأجل توطيد سلطان الحماية الانجليزية كان لا بد من القضاء على كل الثورات والقلاقل المحلية والعمل فى الوقت نفسه على افناء القوات السودانية بسوقهم فى كل مكان لاخماد الفتن التى لا انقطاع لها وانهاكها بأعمال خشنة ومهمات بعيدة فى غابات أوغندة والأنيورو وصحاريهما وأحيانا فيما وراء حدودهما .

لم يذق أولئك السودانيين طعم الراحة يوما واحدا منذ جندهم لاجارد فى سبتمبر سنة ٩١ . وبعد سفر لاجارد « أدوا خدمة جليلة بقاتلتهم البانيورو والباجندة العصاة » ، وفى الأشهر الأخيرة من مأمورية لاجارد وبعدها قاموا بمساعدات قيمة لمكدونالد نفسه ، الذى كان عين فى أواخر سنة ٩١ رئيس المهندسين المكلفين بالدراسات التمهيدية لمشروع

---

(١) Lugard, Vol. II. p. 478-479

السكة الحديد فى أوغندة ، ولأعوانه اليوزباشى برنجل Pringle والصاغ كانتجهام Cunningham الذى عهد اليه بتنظيم قوة مسلحة وغيرهما .

كان ماكدونالد رجلا فيه شراسة وشكاسة . وقد شاءت الأقدار أن يعود ثانية فى سنة ١٨٩٧ على رأس حملة وبرفقته الصاغ أوستن Austin الذى اشتغل تحت رياسة ماكدونالد فى أوغندة فى سنتى ١٨٩٠ — ١٨٩١ واليوزباشى برنجل الذى اشتغل فى سنتى ١٨٩١ — ١٨٩٢ وضباط آخرين من الهند .

غادرت هذه الحملة بومباى فى ١٨ يونية سنة ١٨٩٧ ووصلت مونباسة فى ٩ يولية فى طريقها الى أوغندة . وقد استغرق قطع المسافة فى الداخل ثلاثة أشهر . أما غرض الحملة فيجب أن نذكر أنه كان تقرر فى سنة ١٨٩٧ الزحف نحو الخرطوم لسبق مارشان (حملة فاشـــودة الشهيرة) واتقاء الخطر الذى يتهدد النيل الأبيض .

وكانت خطة الانجليز المزدوجة اعادة فتح السودان بمهاجمته من الشمال والتوغل فى نفس الوقت فى جنوبه من ناحية أوغندة . وقد صرحت وزارة الخارجية الانجليزية لماكدونالد أن يأخذ معه القوات السودانية وكانت عائدة فى ذلك الوقت من مطاردة قوات موانجا فى اقليم بودو Buddu فان موانجا بعد أن يئس من خلع نير الانجليز اضطر الى الفرار واللياذ بالمنطقة الألمانية .

وقد شرح هارى جونستون ، الذى عين فيما بعد حاكما عاما لأوغندة ، تاريخ ثورة السودانيين فى سنة ١٨٩٧ وأسبابها ورغما من تحيزه الظاهر فى بعض المواطن فان كتابته محاولة جديدة لابراز الحقيقة وحسبه أنه بين لنا بعض ما كان يشغل بال الانجليز فى ذلك الوقت .

بعد أن ذكر الخدمات التى أداها السودانيون فى عهد ماكدونالد الأول (٩١ — ٩٢) قال جونستون : « ان السهولة التى تمكن بها أولئك

السودانيون الشجعان الأوفياء من دحر قوات قبائل البانيورو العظيمة والباجندة والباهيما قد ولدت فى نفوسهم أشد الاحتقار للسكان الوطنيين فى الحماية من وثنيين ومسيحيين . أنهم مسلمون متعصبون كانوا يحتقرون فى داخل سريرتهم الرجل الأبيض باعتباره مشركا وكانوا يحلمون دائما بتأسيس ممالك من صنعهم فى هذه الأقطار الخصبة التى يسهل فتحها . ويمكن القول ان ضباطهم (الانجليز) لم يكن اختيارهم فى كل الأحوال موفقا ، وقد سلك بعضهم نحوهم مسلكا فظا غليظا .

« وكانت الادارة بسبب مشـــاق النقل الكبرى التى أصبحت من مستلزمات شحن البضائع وغيرها من سواحل أفريقيا الشرقى عاجزة عن أن تدفع لأولئك السودانيين أجورا مناسبة ، فى البداية ، أو تدفع الأجور بانتظام . فترتب على هذه الحالة وجود متأخر مرتبات متراكمة . وعدا ذلك ، شاءت الحوادث كهرب موانجا وثورة النانـدى[1] Nandi التى أعقبته بقليل فى الجزء الشرقى من الحماية أن يرسل السودانيون عاجلا فى مكان سحيق مئات من الأميال سيرا على الأقدام فى أرجاء الحماية من قسم الى الآخر . ولم يكونوا مطمئنين على نسائهم لأن زنوج أواسط السودان مولعون بتعدد الزوجات وهم يحبون أن تلازمهم نساؤهم أنى يذهبون ليقضوا حاجاتهم فى حياة المعسكر ، ولكن سرعة الحركات العسكرية فرقت بينهم وبين زوجاتهم وأبنائهم وحشمهم . وكانت هذه الفرقة تدوم أحيانا أربعة أو خمسة أشهر متوالية . ولذلك كانت صدورهم موغرة وروح التمرد الكامن تغتلى فيهم حتى حدث حادث اندفعت به الثورة » .

---

(١) تكلم جونســـتون فى كتابه : افريقيـــا (ص ٣٨٦) عن القـــوات السودانية «التى كانت على الدوام مشتبكة فى حروب ضد القبائل الوحشية الجبلية فى هضبة النانـدى ، وضد ملك الواغندة الذى انقلب على الانجليز وأصـــبح مسلما ، وضد قوات الأونيورو التى كانت تحاول اســـترداد الأراضى المفقودة»

وصف جونستون بعد ذلك حملة ماكدونالد وحالة الجنود الذين سيرافقونه : « كانوا مرهقين بالتعب وبمفارقة زوجاتهم باستمرار ، مع شديد تعلقهم بهن ، وكانوا لايحسنون الظن بنزاهة الادارة بسبب عدم دفع المتأخر لهم . وكانوا يخشون الهلاك فى بلاد مجهولة بعيدة كل البعد عن البلاد التى ألفوها . لذلك قرروا أن لا يرافقوا الحملة وأن يعرضوا شكواهم فى الوقت نفسه على أحد الضباط الأنجليز فى كامبالا . ولكن هذا الأخير رفض أن يستمع اليهم فأجمعوا أمرهم على تنفيذ الأوامر على أن يذهبوا فقط الى محطة رافين Ravine فى المديرية الشرقيـة ، للقاء ماكدونالد فيها . وهناك كان أملهم عظيما فى الاتصال بجاكسون أحد كبار الموظفين المدنيين لأنهم كانوا يعرفونه جيدا ويحبون فيه ميله الى العدالة وكانوا يريدون منه أن يتوسط لهم فى الغاء الأمر الصادر اليهم بالخروج من البلاد مع ماكدونالد .

ولكنهم حين وصلوا رافين أبلغوا أن الأمر يجب تنفيذه أما فيما يتعلق بتظلمهم الخاص بتأخر مرتباتهم وبالعمل المطرد فى الحملات المختلفة فسينظر فيها بعد عودتهم من حملة ماكدونالد . وعلى أثر سوء تفاهم وقع بين السودانيين وأحد ضباط الحملة فى رافين صدر الأمر للسودانيين بتسليم أسلحتهم فرفضوا ، ثم أطلقت النار من فوق رؤوسهم فثاروا جهرة وحاولوا الوصول الى قلب أوغندة مخربين فى طريقهم المحطات والمخازن وما اليها . وقد تمكنوا أخيرا من الاستيلاء على حصن لوبا Luba وأسر الصاغ ثرستون Thruston وبعض الانجليز وتنفيذ حكم الاعدام فيهم » .

وهنا يقول جونستون : « ان الحوادث التالية حديثة جدا وليست بحاجة الى التعريف [1] » .

---

(١) H. Johnston, The Uganda Protectorate (vol. I. pp. 239-243)

وتتلخص هذه الحوادث فى أن ماكدونالد ، بمساعدة جاكسون ونفر من الضباط والموظفين ، وأعضاء الجمعية التبشيرية البروتستانية ، تمكن بعد عراك جبار فى ظروف صعبة ، من التغلب على الثوار وطردهم من أراضى حماية أوغندة .

وقد سرد أوستن ، الذى اشترك فى حروب ماكدونالد ، حوادث سنة ١٨٩٧ [١] . بحسب هذا المؤلف ، فى بداية الثورة وخصوصا فى وقت حصار لوبا العصيب كانت حاميات أوغندة كلها مؤلفة من السودانيين الذين يبلغ عددهم حوالى الألف جندى . وكان فى الأنيورو من ٤٠٠ الى ٥٠٠ سودانى موزعين بين ستة مراكز على مسافات شاسعة جدا تحت اشراف القائم مقام داجمور Dugmor الذى كان مقره الرئيسى فى مازندى . وفى اقليم الطورو الغربى Toru كان يوجد اليوزباشى سيتويل Sitwell ومعه فصيلة من السودانيين ظلت على ولائها ابان الثورة كلها وقامت فيما بعد بعمل رائع ضد قوات موانجا حين تمكن الملك السابق من الهرب من الأراضى الألمانية وحاول بسلاحه أن يخفف الضغط على الثوار . وكان فى اقليم بودو Bu ddu الجنوبى الغربى ٢٥٠ سودانيا . وكان أكبر الخطر أن تحدث معا ثورة عامة مشتركة فى أوغندة والأنيورو .

وقد نجحت الادارة فى أوغندة فى اجتذاب الواغندة الى صفها والحيلولة دون اتصال القوات المبعثرة بعضها ببعض — وكانت طبيعة الأشياء تساعد على ذلك — والحجز بين هذه القوات وبين قوات موانجا وبعض الواغندة المسلمين من ناحية وبين قوات كاباريجا من ناحية أخرى .

وقد هزم موانجا فى يناير سنة ١٨٩٨ ثم تبعه بزمن قليل كاباريجا الذى قهرته قوة انجليزية مؤلفة من جنود هندية متحالفة مع الباجندة أو الواغندة . وقد وقع الملكان فى الأسر وثل عرشهما .

---

(١) Major Austin, With Macdonald In Uganda. 1903.

استمرت عمليات ماكدونالد من سبتمبر سنة ١٨٩٧ الى مايو سنة ١٨٩٨ وكانت مملوءة بتفاصيل ودقائق مؤثرة . نذكر على سبيل المثال ما يتعلق منها بأصول الثورة :

بحسب احدى الروايات التى ظهرت فى الصحف الانجليزية لم ينس السودانيون ولم يغفروا المعاملة التى عومل بها سليم بك فى سنة ١٨٩٣ ، وتختلف الآراء فى أهمية هذا العامل فى الثورة . وعلى أية حال فمما لا شك فيه أن بلال أفندى قبل أن يترك أوغندة أقسم برأس ابنه أن لا يعود الى الخدمة تحت رياسة ماكدونالد . وقد علق أوستين على هذه الرواية قائلا : « كان ماكدونالد نفسه منح بلال أمين ترقية جزاء له على مسلكه النبيل فى أثناء قلاقل سليم ، ولكنه قبل أن يصل الى محطة رافين R vine كانت الثورة قد اشتعلت وقد لحق به الثوار فى ناندى . وبعد موت مبروك وسليمان صار رئيس الثوار فأظهر كفاءة نادرة على الرغم من العار الذى لصق به من جراء مقتل ثرستون وآخرين .

« وكان خوطب فى البداية فى مرافقة الحملة فلم يثر صعوبة ما وطلب فقط اجازة بضعة أسابيع فأجيب الى طلبه . ولكن حدث أنه عندما وصل الى كامبالا ليرى أسرته وصله أمر بالذهاب توا فى حملة محلية صغيرة ، وتلقى الوعد بأن يمنح باقى الاجازة عند العودة . ولكنه حين عاد أبلغ أن هذا الوعد لن يوفى به نظرا لحاجة الحملة (ماكدونالد) الملحة الى خدماته فى الحال ولما ألح فى استيفاء أجازته ألقى القبض عليه لعصيان الأوامر وجرد جميع ضباط فصيلته من رتبهم . وقد أطلق سراحه فيما بعد وأرسل للحاق بماكدونالد . ولكنه كان يتحرق حنقا على الطريقة التى عومل بها ويؤكدون أنه حلف فى ذلك الوقت على رأس ابنه بأن لايذهب مع أية حملة فقد أنهكه التعب وكان دائما غائبا عن أسرته ولم يجد أى تقدير لعمله المضنى وخدماته واخلاصه [١] » .

---

(١) Major Austin, With Macdonald In Uganda, p. 301-302

ظاهر من كل ما تقدم أن فاتحى أوغندة والأنيورو ومديرية خط الاستواء القديمة وكل أعالى النيل هم أولئك السودانيون الكبار الذين ظلوا على المحن وصروف الأيام ثابتين على ولائهم لخديوى مصر وتقاليدهم ورايتهم ، وظاهر أن سياسة جبارة واحدة فى جوهرها ، وان تباينت صورها وأشكالها ، قد اتبعت ازاءهم طوال عشرة أعوام .

ولئن أخلت مصر السودان بأمر بريطانيا فانها لم تتنازل قط عن حقوقها المختلفة فى السودان وملحقاته .

وقد أعلن تيجران باشا وزير الخارجية المصرية ، فى ٢٧ أغسطس سنة ١٨٩٢ ، « ان مصر تحتفظ بكافة حقوقها على الأراضى التى كانت تتألف منها مديرية خط الاستواء المصرية » أى مناطق البحيرات وأعالى النيل التى كانت منذ سنة ١٨٧٥ منطقة النفوذ المصرى فى أواسط أفريقيا .

والواقع أن انجلترا باستيلائها على أوغندة وانشاء « حماية » جديدة فى حدود واسعة كان غرضها استغلاليا بحتا . ولن يتغير الموقف القانونى من جراء اخلاء مصر لمناطق بحيرة فكتوريا (أوغندة وعاصمتها) وبحيرة ألبيرت نيانزا (الأنيورو ، ومديرية خط الاستواء فى الشمال ، والساحل الجنوبى لبحيرة كيوجا أو ابراهيم ومنطقة كافالى) . لأن ذلك الاخلاء كما قلنا كان قهريا . على أن الحقوق الأدبية لمصر لاسبيل الى طمسها وحسبنا أن نذكر أنه فى أثناء الثورات المختلفة التى تعاقبت على الممالك الاستوائية منذ سنة ١٨٨٨ كان فى البلاد حكومة صحيحة ونظام سياسى واجتماعى ظلا قائمين ، رغما من جميع الفتن والحروب والاعتداءات السياسية والانقلابات ، دون أن يختل ميزانهما ، حول راية الخديوى التى كانت راية حضارة وعمران .

* * *

ويحسن بنا الآن أن نتساءل عن نتائج السيطرة الانجليزية فى المديريات المتروكة .

وضع الأب روسكو الانجليزى كتابا عن شعوب أواسط أفريقيا ، جاء فيه عند ذكر البنيورو (أونيورو) واكتشافات سبيك وبيكر والغارات التى شنها بيكر ، وخصوصا الانجليز من بعد ، ضد كاباريجا : « فى تلك الأزمنة كانت البلاد غنية بسكانها وماشيتها ولكنها الآن أصبحت فقيرة بسبب الحروب الطويلة فى عصر كاباريجا . وقد تبدد السكان ، وأخذ عددهم يتناقص منذ الاحتلال الانجليزى واضطرار الكثيرين الى المهاجرة فرارا من التسخير وضريبة السكن (hut tax) اللتين حتمتهما السلطات عليهم .

واذا كان الوطنيون أحرارا فى زراعة القطن فان بيعه مقيد بنظام حكومى خاص وبشروط لا تتفق مع الرفاهية اطلاقا .

« وكانت الحالة فى أوغندة هى نفسها فى الأنيورو التى ضمت اليها . اذ توجد مدن وتوجد طرق جديدة تخترق البلاد وجبالها من أقصاها الى أقصاها ولكن ذلك كله « ليس الا نتيجة السُخْرِىِّ المفرط لصالح الأوربيين وحدهم » .

وقد كان انشاء الطرق والمبانى الحكومية « يثير عاصفة من مساوىء استعمال السلطة والمعارضة » لأن الحكومة كانت دائما تلجأ الى تسخير السكان فى هذه الأعمال ولا تدفع الا أجورا اسمية تقدرها السلطات ثم تسقط منها الضرائب . وكان الأوربيون المتوطنون من ناحيتهم ، يقتدون بالحكومة فى محاولة استغلال الوطنيين وارغامهم بمقتضى قانون الاستيلاء الخاص بتشغيل الوطنيين ، على العمل بأجور لا قيمة لها . وقد ترتب على هذه الحالة أن ترك الوطنيون حقولهم « وهاجرت أفضل

---

(١) Johan Roscoe. The Soul of Central Africa, 1922

طبقات العمال صوب البلاد التي يشتغلون فيها أحرارا دون أن يقسروا على القيام بأعمال لا ربح فيها » .

وقد ختم الأب روسكو بقوله : « لا ريب ان مئات من الأميال الجديدة قد ساعدت على تكثير محصولات الامبراطورية ولكن هذه البلاد على الرغم من ذلك لن تصبح مقرا ثابتا للرجل الأبيض » .